

طوق الحمامة

ابن حزم

to pdf: www.al-mostafa.com

المقدمة

قال أبا محمد عفا الله عنه: أفضل ما أبتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة، وعلى جميع أنبيائه عامة، وبعد.

عصمنا الله وإياك من الحيرة، ولا حملنا مالا طاقة لنا به، وقبض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا وخور قوانا و وهاء بنيتنا وتلد آرابنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا، فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدمه لك واستزدته فيك. ثم لم ألبث أن اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك، على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسي الذاكر، إلا من تمسك بجبل الوفاء مثلك ورعى سالف الأذمة و وكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبي وكانت مودته لله تعالى ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون. وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك، ثم كشفت لي بإقبالك غرضك وأطلعني على مذهبك، سجية تلم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك وسرك وجهرك، يجذوك الود الصحيح الذي أنا لك على أضعافه، أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله. وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقاً:

وبعض مودات الرجال سراب

أودك وداً ليس فيه غضاضة

لودك نقش ظاهر وكتاب

وأمحضتك النصح الصريح وفي الحشى

ومزق بالكفين عنه إهاب

فلو كان في روعي هوأك اقتلعته

ولا في سواه لي إليك خطاب

وما لي غير الود منك إرادة

هباء وسكان البلاد ذباب

إذا حزته فالأرض جمعاء والورى

وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متريداً ولا مفتناً، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من الفقر، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرعها إلا فيما نرجو به رحب المقلب وحسن المآب غداً. وإن كان القاضي حمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائذ ياسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال: أجمعوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق. ومن أقوال الصالحين من السلف المرضي. من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقوى. وفي بعض الأثر: أربحو النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد. والذي كلفتني لا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضري وأدر كته عنائي وحدثني به الثقات من أهل زمانه، فاغتنر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستحيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً، وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، وإما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين؛ وإما لرضا من المخبر عنه بظهور خيره وقلة إنكار منه لنقله.

وسأورد في نفي رسالتي هذه أشعاراً قلنتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها على أي سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحليين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجمشون القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أي ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه إلي.

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقترصار على ما رأيت أوضح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين،

فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتخلى بحلى مستعار، والله المستغفر والمستعان لا رب غيره.

الباب الاول

تقسيم الرسالة

وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً، منها في أصول الحب عشرة فأولها هذا الباب، ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب ذكر من أحب من نظرة واحدة ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول ثم باب الإشارة بالعي، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمود والمذمومة أثناء عشر بابا، وإن كان الحب عرضاً والعرض لا يحتمل الأعراض، وصفة والصفة لا توصف فهذا على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف. وعلى معنى قولنا: وجودنا عرضاً أقل في الحقيقة من عرض غيره، وأكثر وأحسن وأصح في إدار كناها علمنا أنها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزي، لأنها لا تشغل مكاناً وهي: باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل ثم باب طي السر، ثم باب الكشف والإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخافة، ثم باب من أحب صفة لم يجب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، وهي باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الوشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين؛ ثم باب السلو. من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، وهما باب العاذل: وضده باب الصديق المساعد؛ باب الهجر وضده باب الوصل ومنها أربعة أبواب لا ضد من معاني الحب، وهي باب الرقيب، وباب الواشي، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما. وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك. ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه.

وباب البين وضده تصاقب الديار، وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها. وباب السلو وضده الحب بعينه، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف. ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كل مؤمن. لكننا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة، فجعلناها على مبادئها إلى منتهائها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود، ومن أول مراتبها إلى آخرها، وجعلنا الضد إلى جنب ضده فاختلف المساق في أبواب يسيرة والله المستعان.

وهيبتها في الإيراد أولها هذا الباب الذي نحن فيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في باب ماهية الحب، ثم باب علامات الحب، ثم باب من أحب بالوصف، ثم باب من أحب من نظرة واحدة، ثم باب من لا يجب إلا مع المطاولة، ثم باب من أحب صفة لم يجب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير، ثم باب طي السر، ثم باب إذاعته، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب العاذل، ثم باب المساعد من الإخوان؛ ثم باب الرقيب، ثم باب الوشي، ثم باب الوصل، ثم باب الهجر، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب البين، ثم باب القنوع، ثم باب الضنى، ثم باب السلو ثم باب الموت؛ ثم باب قبح المعصية؛ ثم باب التعفف.

الكلام في ماهية الحب

الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكر في الديانة ولا محظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير، منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية الدععاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنة أشهر من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره

مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمُطرف معلوم، والحاكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضي الله عنه وعن جميعهم وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها. ومثل هذا كثير، ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل.

وأما كبار رجالهم ودعاتهم دولتهم فأكثر من أن يحصوا، وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد، بنت رجل من الجبائين حتى حمله حبها أن يتزوجها، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة، ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر.

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني أن نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار، الذي ولي الملك بعده وادعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده، مساعدة لجارية كان يجها حياً شديداً، هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه.

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغنى بأشعارهم عن ذكرهم: وقد ورد من خير عبيد الله عتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية. وهو أحد فقهاء المدينة السبعة وقد جاء من فتيا ابن عباس رضي الله عنه مالا يحتاج معه إلى غيره حين يقول: هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود.

وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة. الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأباً يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد، والتزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل، وسنخها المهياً لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة النفار. كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها، والله عز وجل يقول: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها"، فجعل علة السكون أهما منه. ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة. ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأذن ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه. فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت الحجة لسبب من الأسباب، وتلك تغني بفناء سببها. فمن ودك لأمر ولي مع انقضائه.

وفي ذلك أقول:

ودادي لك الباقي على حسب كونه

تناهى فلم ينقص بشيء ولم يزد

وليست له غير الإرادة علة

ولا سبب حاشاه يعلمه أحد

إذا ما وجدنا الشيء علة نفسه

فذاك وجود ليس يفنى على الأبد

وإما وجدناه لشيء خلافه

فإعدامه في عدنا ما له وجد

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن الحجة ضروب. فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل؛ إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشترار في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ للذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس، فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها وزائدها وناقصة بنقصاتها، متأكدة بدونها فطرة ببعدها. حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت.

وإنك لتجد الإنسان السالي برغمه. وذا السن المتناهية، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين.

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة، من شغل البال والخليل والوسواس وتبدل الغرائز المركبة واستحالة السجاي المطبوعة والنحول والزفير وسائر دلالات الشجا ما يعرض في العشق، فصح بذلك أنه استحسن روحاني وامتزاج نفساني. فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظهما واحد فالجواب عن ذلك أن نقول: هذه لعمرى معارضة صحيحة، ولكن نفس الذي لا يجب من يحبه مكنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بما قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة. ونفس المحب متخلصة عاملة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتتة لملاقاته، حاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد، فقوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمتها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها، كما أن قوة الحديد لشدها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وبالاختيار والتعمد. وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبة المسك له مما هو أقوى منه. ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظم جرم المغناطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عادت إلى طبعها المعهود. وكالتار في الحجر لا تبرز على قوة الحجر في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمن بضغطهما واصطكاكهما، وإلا فهي كامنة في حجرها لا تبدو ولا تظهر. ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد من هذا وإن قل، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عياناً، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد: "الأرواح جنود مجنونة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"، وقول مروى عن أحد الصالحين: أرواح المؤمنين تتعارف. ولهذا ما اغتم أبقرات حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه، فقيل له في ذلك، فقال: ما أحببني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه.

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى اظهر براءته، وعلم الملك أنه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولى إيصال كلامه إليه: أيها الملك، قد استبان لك أنه بريء فمالك وله؟ فقال الملك: لعمرى مالي إليه سبيل، غير أني أجد لنفسي استتقلاً لا أدري ما هو. فأدى ذلك إلى أفلاطون. قال: فاحتجت أن أفتش في نفسي وأخلاقى أجد شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقهما مما يشبهها، فنظرت في أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم، فميزت هذا الطبع في، فما هو إلا أن حركته هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسى فأمر بإطلاقي وقال لوزيره: قد انحل كل ما أجد في نفسي له.

وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس حسنة وتولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المنقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة.

وإن للصور لتوصيلاً عجباً بين أجزاء النفوس النائية. وقرأت في السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنماً لابن حاله مهراً لا بنته شارطه على المشاركة في إنسالها، فكل بهيم ليعقوب وكل أغر للأبان، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسليخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله، ثم يلقي الجميع في الماء الذي ترده الغنم، ويتعمد إرسال الطروقة في ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين، نصفاً بهماً ونصفاً غراً.

وذكر عن بعض القافة أنه أتى بابن أسود لأبيضين، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك. فرغب أن يوقف على الموضع الذي اجتمعا عليه. فأدخل البيت الذي كان فيه مضجعهما، فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورة أسود في الحائط، فقال لأبيه: من قبل هذه الصورة أتيت في إنك.

وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى في أشعارهم، فيخاطبون المرئي في الظاهر خطاب المعقول الباطن، وهو المستفيض في شعر النظام إبراهيم بن سيار وغيره من المتكلمين، وفي ذلك أقول شعراً، منه:

وعلة الفر منهم أن يفرونا
إليك يا لؤلؤاً في الناس مكنونا
فهم إلى نورك الصعاد يعيشونا
إليك طوعاً فهم دأباً يكرونا

ما علة النصر في الأعداء تعرفها
إلا نزاع نفوس الناس قاطبة
من كنت قدامه لا ينتئى أبداً
ومن تكن خلفه فالنفس تصرفه

ومن ذلك أقول:

أبن لي فقد أزرى بتميزي العي
إذا عمل التفكير فالجرم علوي
على أنك النور الأنيق الطبيعي
إلينا مثال في النفوس اتصالي
نقيس عليه غير أنك مرئي
سوى أنك العقل الرفيع الحقيقي

أمن عالم الأملاك أنت أم أنسى
أرى هيئة إنسية غير أنه
تبارك منسوى مذاهب خلقه
ولا شك عندي أنك الروح ساقه
عد منا دليلاً في حدوتك شاهداً
ولولا وقوع العين في الكون لم نقل

وكان بعض أصحابنا يسمى قصيدة لي الإدراك المتوهم، منها:

فكيف تحد اختلاف المعاني
ويا عرضاً ثابتاً غير فان
فما هو مذ لحت بالمستبان

ترى كل ضد به قائماً
فيأيها الجسم لا ذا جهات
نقضت علينا وجوه الكلام

وهذا بعينه موجود في البغضة، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى، ولا علة، ويستقل بعضها بعضاً بلا سبب. والحب أعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة، ومقام مستلذ، وعلة مشهاة لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليها الإفاقة. يزين المرء ما كان يأنف منه، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى يحيل الطبائع المركبة والجليلة المخلوقة. وسيأتي كل ذلك ملخصاً في بابيه إن شاء الله. خبير: ولقد علمت فتى من بعض معارف في قد وحل من الحب وتورط في حباته، وأضر به الوجد، وأنضح الدنف، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل في كشف ما به ولا ينطق به لسانه، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكن ممن يحب، على عظيم بلائه وطويل هممه، فما الظن بسقيم لا يريد فقد سقمه ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساعني فقلت له في بعض قولي: فرج الله عنك فلقد رأيت أثر الكراهية في وجهه. وفي مثله أقول من كلمة طويلة:

ولست عنك مدى الأيام أنصرف
فما جوابي إلا اللام والألف

وأستلذ بلائي فيك يا أملي
إن قيل لي تتسلى عن مودته

خبر: وهذه الصفات مخالفة لما أخبرني به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشي. المعروف بالشلشي، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أنه لم يحب أحداً قط، ولا أسف على إلف بان منه، ولا تجاوز حد الصحبة والألفة إلى حد الحب والعشق منذ خلق.

الباب الثاني

علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي. فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها. فترى الناظر لا يطرف، ينتقل ينتقل المحبوب ويتزوي بانزواته، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

فليس لعيني عند غيرك موقف كأنك ما يحكون من حجر البهت

أصرفها حيث أنصرفت وكيفما تقلبت كالمنعوت في النحو والنعت

ومنها الإقبال بالحديث. فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه، والإنصات لحدثه إذا حدث، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وخرق العادات، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول.

ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، والتعمد للتعود بقربه والدنو منه، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه، والاستهانة بكل خطب حليل داع إلى مفارقتة، والتباطؤ في الشيء عند القيام عنه. وفي ذلك أقول شعراً

وإذا قمت عنك لم أمش إلا مشي عان يقاد في نحو الفناء

في مجيئي إليك أحتت كالبد ر إذا كان قاطعاً للسماء

وقيامي إن قمت كالأنجم العا لية الثابتات في الإبطاء

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على الحب عند رؤية من يجب فجأة وطلوعه بغته. ومنها اضطراب يبدو على الحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك أقول قطعة، منها.

إذا ما رأيت عينا لا بس حمرة تقطع قلبي حسرة وتفطرا

غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً وصرح منها ثوبه فتعصفا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعي في حظه، كل ذلك ليبيدي محاسنه ويرغب في نفسه. فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تطرب، وجاهل تأدب، وتغل تزين، وفقير تحمل. وذي سن تفتي، وناسك تفتك، ومصون تبذل.

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه. فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهاراً. ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات، منها:

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لي فيه ويعبق لي عن عنبر أرج

إن قال لم أستمع ممن يجالسني إلى سوى لفظة المستطرف الغنج

ما كنت من أجله عنه بمنعرج

أزال ملتفتاً والمشى مشي وجي

مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج

كمن تتأعب وسط النقع والوهج

نعم وإني لأدري موضع الدرج

ولو يكون أمير المؤمنين معي

فإن أقم عنه مضطراً فإني لا

عيناى فيه وجسمي عنه مرتحل

إغص بالماء إن أذكر تباعده

وإن تقل ممكن قصد السماء أقل

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذي بصر الإنبساط الكثير الزائد، والتضايق في المكان الواسع، والمخاضة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالإتكاء، والتعمد لمس اليد عند المخادعة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة. وشرب فضلة ما بقى المحبوب في الإناء، وتحري المكان الذي يقابله فيه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة، والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها. ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعمل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والغم إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين. وهذا في العالم كثير، فوجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً أكثر بهما جدهما بغير معنى، وتضادهما في القول تعمداً، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقد كل واحد منهما في صاحبه. والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة المضادة المتولدة عن الشحنة ومخارجة التشاجر سرعة الرضى، فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا يقدر يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل ولا ينجر عند الحقود أبداً، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجهل الصحة، وأهدرت المعاتبية، وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة، هكذا في الوقت الواحد مراراً. وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالرك شك ولا يدخلك ريب البتة ولا تتماهى في أن بينهما سرّاً من الحب دفتينا، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف. ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة. هذا لا يكون إلا عن تكلف في المودة واتلاف صحيح، وقد رأيت كثيراً.

ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب، ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هجيراً، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ولا ينهه عن ذلك تخوف أن يفتن السامع ويفهم الحاضر، وحبك الشيء يعمي ويصم. فلو أمكن المحب ألا يكون حديث في مكان يكون فيه إلا ذكر من يحبه لما تعدها. ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ في الطعام وهو له مشته فما هو إلا وقت، ما تحتاج له من ذكر من يجب صار الطعام غصة في الحلق وشجى في المرء. وهكذا في الماء وفي الحديث فإنه يفاتحك متبهجاً فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يجب فتستبين الحوالة في منطقته والتقصير في حديثه، وآية ذلك الوجوم والإطراق وشدة الانفلاق، فبينما هو طلق الوجه خفيف الحركات صار منطبقاً متناقلاً حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال ومن علاماته حب الوحدة والإنس بالانفراد، ونحول الجسم دون حد يكون فيه ولا وجع مانع من الثقل والحركة والمشى. دليل لا يكذب ومخبر لا يخون عن كلمة في النفس كامنة. والسهر من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب وواصفو طول الليل. وفي ذلك أقول وأذكر كتمان السر وأنه يتوسم بالعلامات:

فعمت بالحيا السكب الهتون

بذلك أم على سهري معيني

ألا ما أطبقت نوماً جوفوني

تعلمت السحائب من شؤوني

وهذا الليل فيك غدا رفيقي

فإن لم ينقض الإظلام فجراً

فليس إلى النهار لنا سبيل
كأن نجومه والغيم يخفي
ضميري في ودادك يا منايا
فليس يبين إلا بالظنون
وسهد زائد في كل حين
سناها عن ملاحظة العيون

وفي مثل ذلك قطعة منها:

أرعى النجوم كأنتني كلفت أن
فكأنها والليل نيران الجوى
وكأني أمسيت حارس روضة
لو عاش بطليموس أيقن أنني
أرعى جميع ثبوتها والخنسي
قد أضرمت في فكرتي من حندس
خضراء وشح نبتتها بالنرجس
أقوى الورى في رصد جرى الكنس

والشيء قد يذكر لما يوجه: وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيتين بشيتين في بيت واحد. وهو البيت الذي أوله فكأنها والليل وهذا مستغرب في الشعر. ولي ما هو أكمل منه، وهو تشبيه أشياء في بيت واحد، وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد. وكلاهما في هذه القطعة أوردها، وهي:

مشوق معنى ما ينام مسهد
ففي ساعة يبدي إليك عجائباً
كأن النوى والعتب والهجر والرضى
رئى لغرامي بعد طول تمنع
نعمنا على نور من الروض زاهر
كأن الحيا والمزن والروض عاطراً
بخمر التجني ما يزال يعربد
يمر ويستحلي ويدني ويبعد
قران وأنداد ونحس وأسعد
وأصبحت محسوداً وقد كنت أحسد
سفته الغوادي فهو يثني ويحمد
دموع وأجفان وخذ مورد

ولا ينكر على منكر قولي قران فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة قراناً. ولي أيضاً ما هو أتم من هذا، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة، هي:

خلوت بها والراح ثالثة لها
فتاة عدمت العيش إلا بقربها
كأني وهي والكأس والخمر والدجي
وجنح ظلام الليل قد مد ما انبلج
فهل في ابتغاء العيش ويحك من حرج
ثرى وحيا والدر والتبر والسنج

فهذا أمر لا مزيد فيه ولا يقدر أحد على أكثر منه، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك. ويعرض للمحبين القلق عند أحد أمرين: أحدهما عند رجائه ملاقاة من يحب فيعرض عند ذلك حائل.

حبر: وإني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة، فما كنت أراه إلا جاثياً وذاهباً لا يقربه القرار ولا يثبت في مكان واحد، مقبلاً مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة، وأشاطه بعد رزانة. ولي في معنى انتظار الزيارة:

أقمت إلى أن جاءني الليل راجيا
فأياسني الإظلام عنك ولم أكن
لقائك يا سؤلي ويا غاية الأمل
لأياس يوماً إن بدا الليل يتصل

وَعِنْدِي دَلِيلٌ لَيْسَ يَكْذِبُ خَبْرَهُ

بِأَمْتَالِهِ فِي مَشْكَالِ الْأَمْرِ يَسْتَدَلُّ

وَعِنْدِي دَلِيلٌ لَيْسَ يَكْذِبُ خَبْرَهُ

لَأَنَّكَ لَوْ رَمْتَ الزِّيَارَةَ لَمْ يَكُنْ

والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تدري حقيقته إلا بالوصف .

فعند ذلك يشتد القلق حتى توقف على الجلييلة، فيما أن يذهب تحمله إن رجا العفو، وإما أن يصير القلق حزناً وأسفاً إن تخوف المجر .

ويعرض للمحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه . وسيأتي مفسراً في بابه إنشاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عند ما يرى من إعراض محبوبه عنه ونفاره منه، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه

وتنفس الصعداء . وفي ذلك أقول شعراً، منه:

وَدَمْعُ الْعَيْنِ مَسْفُوحٌ

جَمِيلُ الصَّبْرِ مَسْجُونٌ

ومن علاماته أنك ترى الحب يجب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات الحب ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع هامل الشؤون تحببه عينه وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عدم

الدمع، وأنا منهم . وكان الأصل في ذلك إيماني أكل الكندر لخفقان القلب، وكان عرض لي في الصبا، فإني لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد

قلبي يتفطر ويتقطع وأحس في قلبي غضة أمر من العلقم تحول بيني وبين توفية الكلام حق مخارجه، وتكاد تشوقني النفس أحياناً ولا تحبب

عيني البتة إلا في الندرة بالشيء اليسير من الدمع .

خبر: ولقد أذكرني هذا الفصل يوماً: ودعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبي أبا عامر محمد بن عامر صديقنا رحمه الله في سفرته إلى

المشرق التي لم نره بعدها، فجعل أبو بكر يبكي عند وداعه وينشد متمثلاً بهذا البيت:

عَلَيْكَ بِيَاقِي دَمْعُهَا لَجْمُودٌ

أَلَا إِنْ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة رحمه الله . ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدني عيني،

فقلت مجيباً لأبي بكر:

عَلَيْكَ وَقَدْ فَارَقْتَهُ لَجْلِيدٍ

وَإِنْ أَمْرًا لَمْ يَفِنْ حَسَنَ اصْطِبَارِهِ

فَإِنْ دَمُوعَ الْعَيْنِ تَبْدِي وَتَفْضُحُ

إِذَا كَتَمَ الْمَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِهِ

فَفِي الْقَلْبِ دَاءٌ لِلْغَرَامِ مَبْرُوحٌ

إِذَا مَا جَفُونَ الْعَيْنِ سَالَتْ شَتُونُهَا

ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها، وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإني لأعلم من كان

أحسن الناس ظناً وأوسعهم نفساً وأكثرهم صبراً وأشدهم احتمالاً وأرحبهم صدرًا، ثم لا يحتمل ممن يحب شيئاً ولا يقع له معه أيسر مخالفة

حتى يبدي من التعديد فنوناً ومن سوء الظن وجوهاً . وفي ذلك أقول شعراً، منه:

تَأْتِي بِهِ وَالْحَقِيرُ مِنْ حَقْرِ

أَسِيءُ ظَنِّي بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ

فَالنَّارُ فِي بَدءِ أَمْرِهَا شَرُّ

كِي لَا يَرَى أَصْلَ هَجْرَةٍ وَقَلَى

وَمِنْ صَغِيرِ النَّوَى تَرَى الشَّجْرَ

وَأَصْلَ عَظْمِ الْأُمُورِ أَهْوَنَهَا

وترى الحب، إذا لم يثق بنقاء طوية محبوبه له، كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك، متقفاً لكلامه، مزيناً لحركاته ومرامي طرفه، ولا

سيما إن دهى بمتحن وبلى بمتعربد .

ومن آياته مراعاة الحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبخثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جلييلة، وتتبعه لحركاته . ولعمري لقد

ترى البليد يصير في هذه الحالة ذكياً، والغافل فطناً.

خير: ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها، وكنا في لمة، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي: ما تقول في هذا؟ وأشار إلى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال: هو رجل عاشق فقال له: صدقت، فمن أين قلت هذا؟ قال: لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمت أنه عاشق وليس بمريب.

الباب الثالث

من أحب في النوم

ولا بد لكل حب من سبب يكون له أصلاً، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ليجري الكلام على نسق، أو أن يبتدأ أبداً بالسهل والأهون. فمن أسبابه شيء لولا أي شاهدته لم أذكره لغرابته.

خير:

وذلك أي دخلت يوماً على أبي السري عمار بن زياد صاحبنا مولى المويد فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به، فتمنع ساعة ثم قال: لي أعجوبة ما سُمعت قط، قلت: وما ذلك؟ قال: رأيت في نومي الليلة حارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها وإنني لفي أصعب حال من حبها، ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنته شيء وهداً، إلى أن لمته وقلت له: من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد، هل تعلم من هي؟ قال: لا والله، قلت: إنك لقليل الرأي مصاب البصيرة إذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر. فما زلت به حتى سلا وما كاد.

وهذا عندي من حيث النفس وأضعافها، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

يا لبيت شعري من كانت وكيف سرت
أظنة العقل أبداه تتدبره
أطلعة الشمس كانت أم هي القمر
أو صورة الروح أبدتها لي الفكر
أو صورة مثلت في النفس من ألمي
فقد تخيل في إدراكها البصر
أو لم يكن كل هذا فهي حادثة
أتى بها سبباً في حنفي القدر

الباب الرابع

من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة والهلم والوجد والسهل على غير الإبصار، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً.

وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سبباً للحب واشتغال البال. وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بنيان هار على غير أس، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية، وكلا الوجهين قد عرض وعرف، وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طباعهن إلى هذا الشأن، وتمكنه منهن. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

ويا من لامني في حب من لم يره طرفي
لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

وأقول شعراً في استحسان النعمة دون وقوع العين على العيان منه:

وهو على مقلتي يبدو

قد حل جيش الغرام سمعي

وأقول أيضاً في مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية:

وصفوا علمت بأنه هذيان

وصفوك لي حتى إذا أبصرت ما

يرتاع منه ويفرق الإنسان

فالطبل جلد فارغ وطنينه

وفي ضد هذا أقول:

فصار الظن حقاً في العيان

لقد وصفوك لي حتى التقينا

على التحقيق عن قدر الجنان

فأوصاف الجنان مقصرات

وإن هذه الأحوال لتحدث بين الأصدقاء والإخوان، وعني أحدث.

خير: إنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ود وكيد وخطاب كثير، وما تراءينا قط. ثم منح الله لي لقاءه، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا منافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن، فقلت في ذلك قطعة، منها:

كما الصحائف قد يبدلن بالنسخ

أبدلت أشخاصنا كرهاً وفرط قلبي

ووقع لي ضد هذا مع أبي عامر بن أبي عامر رحمة الله عليه، فإني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كذلك، ولم يرني ولا رأيته، وكان أصل ذلك تنقيلاً يحمل إليه عني وإلي عنه، ويؤكد انحراف بين أبويننا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ووجاهة الدنيا، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي أود الناس وصرت له كذلك، إلى أن حال الموت بيننا. وفي ذلك أقول قطعة؛ منها:

وأوجدني فيه علقاً شريفاً

أخ لي كسبنيه اللقاء

وما كنت أرغبه لي أليفاً

وقد كنت أكره منه الجوار

وكان الثقيل فصار الخفيفا

وكان البغيض فصار الحبيب

فصرت أديم إليه الوجيفا

وقد كنت أدمن عنه الوجيف

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبري فكان لي صديقاً مدة على غير رؤية، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن.

الباب الخامس

من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة. وهو ينقسم قسمين، فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً، وقد عرض هذا لغير واحد.

خير: حدثني صاحبنا أبا بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخيره سقط عني اسمه، وأظنه القاضي ابن الخداء، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلل حبيها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض. فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن الناس لا همة له غيرها فانصرفت إليه فقالت له: مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليته بما. فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في النية ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال: إني أفتنح بالنظر. فقالت: ذلك مباح لك. فقال لها: يا سيدتي: أحره أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة. قال: ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع الخيال. فقال لها: يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة. فقالت له: إما أن تنهض أنت وإما أن أمهض أنا فقال لها: امهضي في حفظ الله. فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه أتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

قال أبو عمرو، وهو يوسف بن هارون: فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خير ولا أدري أسماء لحستها أم أرض بلعتها، وإن في قلبي منها لأحر من الجمر. وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره. ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سر قسطة في قصة طويلة. ومثل ذلك كثير. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

فأرسل الدمع مقتصاً من البصر

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر

منها بإغراقها في دمعها الدرر

فكيف تبصر فعل الدمع منتصفاً

وأخر العهد منها ساعة النظر

لم ألقها قبل إيصاري فأعرفها

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ، ولكن التفاصيل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه، فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لحظة خاطرة فهو دليل على قلة البصر، ومخير بسرعة السلو، وشاهد الظرافة والملل. وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء. وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً. خير: إني لأعلم فتى من أبناء الكتاب ورأته امرأة سرية النشأة، عالية المنصب، غليظة الحجاب، وهو مجتاز، ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلها، فعلقته وعلقها وتماديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف، ولولا أنني لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لأوردت مما صح عندي أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بحمه، وكفانا.

الباب السادس

من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة وتمادي الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مُر الليلي فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً، وهذا مذهبي. وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم، وهو فخار، فهاب وحزع: ادخل كرهاً واخرج كرهاً. حُذِثناه عن شيوخنا. ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن أحس من نفسه بابتداء هوى أو توحس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور استعمل الحجر وترك الإمام، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده، ويحال بين العير والزوان. وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة، وأنه إذا تمكن منهم لن يرحل أبداً. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

سأبعد عن دواعي الحب إنني

رأيت الحزم من صفة الرشيد

رأيت الحب أوله التصدي

بعينك في أزاهير الخدود

فبيننا أنت مغتبط مخلى

إذا قد صرت في حلق القيود

كمغتر بضحضاح قريب

فزف فغاب في عمر المدود

وإن لأطيل العجب منك من يدعي أنه يجب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذني معه في كل جد وهزل، وكذلك أنا في السلو والتوقي، فما نسيت ودأ لي قط، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرفني بالماء، وقد استراح من لم تكن هذه صفته. وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به، ولا أسرعت إلى الأناشيد بشيء قط أول لقائي له، وما رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت، لا أقول في الآلاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانفلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة، وإنه لشجي يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه، وإنني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا. والله الحمود على كل حال لا إله إلا هو. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

محببة صدق لم تكن بنت ساعة

ولا وريث حين ارتياد زنادها

ولكن على مهل سرت وتولدت

بطول امتزاج فاستقر عمادها

فلم يدن منها عزمها وانتقاضها

ولم ينأ عنها مكثها وازديادها

يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة

تتم سريعاً عن قريب معادها

ولكنني أرض عزاز صليبية

منيع إلى كل الغروس انقيادها

فما نفذت منها لديها عروقها

فليست تبالي أن تجود عهدها

ولا يظن ظان ولا يتوهم متوهم أن كل هذا مخالف لقولي المسطر في صدر الرسالة، أن الحب اتصال بين النفوس في أصل علمها العلوي، بل هو مؤكد له. فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب، ولحقتها الأغراض، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت لم تحله، لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت مما يشاهدها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع.

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة فإذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً. ومن هنا دخل الخلط على من يزعم أن يجب اثنين ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا أنفأ، وهي على الحجاز تسمى محبة لا على التحقيق، وأما نفس الحب فما في الميل به فضل بصره من أسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثان. وفي ذلك أقول:

كذب المدعي هوى اثنين حتما

مثل ما في الأصول أكذب ماني

ليس في القلب موضع لحبيبي

ن ولا أحدث الأمور بثاني

فكما العقل واحد ليس يدري

خالقاً غير واحد رحمان

فكذا القلب واحد ليس يهوى

غير فرد مباعد أو مدان

هو في شرعة المودة ذو شك بعيد من صحه الإيمان

وكذا الدين واحد مستقيم

وكفور من عنده دينان

وإني لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب كان يتتبع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه، وأكثر من ذلك كارهة له لقله حلاوة شمائل كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكره حيا مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه. صحبه هذا الأمر في عدة منهن. فقال بعض إخواني: فسألته عن ذلك فتبسم نحوي وقال: إذا والله أخيرك أنا أبطأ الناس إنزالاً، تقضي المرأة شهوتها وربما ثنت وإنزالي وشهوتي لم ينقضيا بعد، وما فترت بعدها قط، وإني لأبقي بمنيتي بعد انقضائها الحين الصالح. وما لاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدني المعانقة، وبحسب ارتفاع صدري نزول مؤخري.

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة، إذا الأعضاء الحساسة مسالك النفوس ومؤديات نحوها.

الباب السابع

من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم أعزك الله أن للحب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً، وأمرأ لا يخالف، وحدأ لا يعصى، وملكاً لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يرد؛ وأنه ينقض المرر، ويحل الميرم، ويحل الجامد، ويحل الثابت، ويحل الشغاف، ويحل المنوع، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يهتمون في تمييزهم، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم، ولا اختلال بحسن اختيارهم، ولا تقصير في حدسهم، قد وصفوا أحبباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال، فصارت هجيراهم، وعرضة لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها، على ما هو أفضل منها في الخليفة، ولا مالوا إلى سواها؛ بل صارت تلك الصفات المستحبة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم، حينئذ منهم إلى من فقدوه، وألفة لمن صحبوه. وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لا دخل فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في طي عقدهم بغيره. وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسنت أعيد ولا غيداء بعد ذلك. وأعرف من كان أول علاقته بجارة مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا. وأعرف أيضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقدر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة. وما أصف عن منقوصي الحظوظ في العلم والأدب لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدراية.

وعني أخيرك أي أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سواد الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تواتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله.

وأما جماعة خلفاء بني مروان - رحمهم الله - ولا سيم ولد الناصر منهم، فكلهم محبوبون على تفضيل الشقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف. وقد رأيناهم ورأينا من رأيهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر نزاعاً إلى أمهاتهم، حتى صار ذلك فيهم خلقة، حاشى سليمان الظافر رحمه الله، فإني رأيته أسود اللمة واللحية.

وأما الناصر والحكم والمستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنهما كانا أشقرين أشهلين، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله، فإني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شقراً شهلاً، وهكذا أولادهم وأخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أذلك استحسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فحروا عليها. وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطلق، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم وأكثر تغزله فبالشق، وقد رأيتته وجالسته.

وليس العجب فيمن أحب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك، ولا فيمن طلع مذ كان على تفضيل الأذن، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقاءه في الجماعة فأحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعاً: وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أولاً. فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأتي إلى الأذن فأعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم، وهو أصدق المحبة حقاً، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منه، ويدعي غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخير من يجب، أما لو شغل الحب بصيرته، وأطاح فكرته، وأجحف بتمييزه، لحال بينه وبين التخيل والإرتياد. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

كأنما الغيد في عينيه جنان	منهم فتى كان في محبوبه وقص
بحجة حقها في القول تبيان	وكان منبسطاً في فضل خبرته
لا ينكر الحسن فيه الدهر إنسان	إن المها وبها الأمثال سائرة
وهل تزان بطول الجيد بعيران	وقص فليس بها عنقاء واحدة
يقول حسبي في الأفواه غزلان	وأخر كان في محبوبه قوة
يقول إن ذوات الطول غيلان	وثالث كان في محبوبه قصر

وأقول أيضاً:

فقلت لهم هذا الذي زانها عندي	يعيبونها عندي بشقرة شعرها
لرأى جهول في الغواية ممتد	يعيبون لون النور والتبر ضلة
ولون النجوم الزاهرات على البعد	وهل عاب لون النرجس الغض عائب
مفضل جرم فاحم اللون مسود	وأبعد خلق الله من كل حكمة
ولبسة باك مثكل الأهل محتد	به وصفت ألوان أهل جهنم
نفوس الورى أن لاسبيل إلى الرشد	ومذ لاحت الرايات سواد تيقنت

الباب الثامن

التعريض بالقول

ولا بد لكل مطلوب من مدخل إليه، وسبب يتوصل به نحوه فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليم الأول جل ثناؤه. فأول ما يستعمل طلاب أوصل وأهل الحجة في كشف ما يجدونه إلى أحببتهم التعريض بالقول، إما بإنشاد شعر، أو بإرساء ومثل، أو تسمية بيت، أو طرح لغز، أو تسليط كلام وللناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أحببتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلاهة. وإني لأعرف من ابتداء كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتها. فهذا وشبهه ينتدى به الطالب للمودة، فإن رأى أنسا وتسهيلاً زاد، وإن يعاين شيئاً من هذه الأمور في حين إنشاده لشيء مما ذكرنا، أو إيراد بعض المعاني التي حددنا، فانتظاره الجواب، إما بلفظ أو بمهيئة الوجه والحركات، لموقف بين أرجاء واليأس هائل، وإن كان حيناً قصيراً، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه. ومن التعريض بالقول: جنس ثان، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة الحجة من المحبوب، فحينئذ يقع التشكي وعقد المواعيد والتغريير وأحكام المواد بالتعريض، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير ما يذهبان إليه، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ويسبق إلى وهمه، وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه وأجاب به بما لا يفهمه غيرهما إلا من أيد بحس نافذ، وأعين بذكاء، وأمد بتجربة، ولا سيما إن أحس من معانيهما بشيء وقلما يغيب عن المتوسم الجيد، فهناك لا خفاء عليه فيما يريدان. وأنا أعرف فتح وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض مالا يجمل. فقالت: والله لأشكونك في الملاءة ولأفضحنك فضيحة مستورة. فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلس بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجل رجال الخلافة، وفيه ممن يتوقى أمره من النساء والخدم عدد كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى، لأنه كان بسبب من الرئيس، وفي المجلس مغنيات غيرها فلما انتهى الغناء إليها سوت عودها واندفعت تعني بأبيات قديمة، وهي:

كشمس قد تجلت من غمام

غزال قد حكى بدر التمام

وقد الغصن في حسن القوام

سبى قلبي بألحاظ مراض

له وذلت ذلة مستهام

خضعت خضوع صب مستكين

فما أهوى وصالاً في حرام

فصلني يا فديتك في حلال

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت:

أنت من ظالم حكم وخصم

عتاب واقع وشكاة ظلم

سوى المشكو ما كانت تسمى

تشكت ما بها لم يدر خلق

الباب التاسع

الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقبول، إذا وقع القبول والموافقة، الإشارة بلحظ العين وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعده ويهدد، ويتنهر ويبسط ويؤمر وينهي، وتضرب به الوعود، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطي.

ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه. وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني: فالإشارة بمؤخر العين الواحدة هي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول وإدانة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح.

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه. والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاها سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين هي عام. وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة.

وأعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بما تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات. وقد قيل ليس المخبر كالمعائن وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلواً صافياً، إما حديداً مفصلاً أو زجاجاً أو ماء أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف سائر مناع كدر، انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه وما زها عياناً. وهو الذي ترى في المرآة، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك. ودليل عياني على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين فتمسك إحداها يمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قبالة وجهك ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيان بالمقابلة، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك. وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التي خلفك، إذ لم تجد منفذاً في التي بين يديك، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم. وإن صالح غلام أبي إسحاق النظام خالف في الإدراك فهو قول ساقط لم يوافق عليه أحد ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً، لأنها نورية لاتدرك الألوان بسواها، ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خلقتها هذه المرآة، فهي تدر كها وتصل إليها بالنظر، لا على قطع الأمكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات، وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدر كان إلا بالجاورة، والسمع والشم لا يدر كان إلا من قريب. ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت، وإن تعمدت إدراكهما معاً. وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع.

الباب العاشر

المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا المراسلة بالكتب. وللكتب آيات. ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب ويحلقها في الماء ويمحو أثرها، فرب فضيحة كانت بسبب كتاب. وفي ذلك أقول:

ولكنه لم يلف للود قاطع

مداد فإن الفرع للأصل تابع

ولم يدره إذ نمفته الأصابع

عزيز على اليوم قطع كتابكم

فأثرت أن يبقى وداداً وينمحي

فكم من كتاب فيه مينة ربه

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس. ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان، إما لحصر في الإنسان وإما لحياة وإما لهيبة. نعم، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية، وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه. ولعهدي ببعض أهل الحبة، ممن كان يدري ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق، لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار أتى المزار، ويحكي أنها من وجوه اللذة. ولقد أخبرت عن بغض السقاط الوضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله. وإن هذا النوع من الإغترام قبيح وضرب من الشبق فاحش.

وأما سقي الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه، يسقي الحبر بالريق، وفي ذلك أقول:

فسكن مهتاجاً وهيج ساكناً

جواب أتاني عن كتاب بعثته

فعال محب ليس في الود خائناً

سقيت بدمع العين لما كتبتنه

فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا

فما زال ماء العين يمحو سطوره

وأضحى بدمعي آخر الحظ باننا

غدا بدموعي أول الحظ بيننا

خبر: ولقد رأيت كتاب الحب إلى محبوبه، وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع. ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه لصيغ اللك.
الباب الحادي عشر

السفير

ويقع في الحب بعد هذا، بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس، إدخال السفير. ويجب تخيره وارتباده واستجداته واستفراجه، فهو دليل عقل المرء، ويده حياته وموته، وستره وفضيحته بعد الله تعالى. فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة، وبقطر من الغائب، ويحسن من ذات نفسه ويضع من عقله ما أغفله باعته، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظاً، وللعهد وفيماً، قنوعاً ناصحاً. ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

حساماً ولا تضرب به قبل صقله

رسولك سيف في يمينك فاستجد

يعود على المعنى منه بجعله

فمن يك ذا سيف كهام فضره

وأكثر ما يستعمل الخيون في إرسالهم إلى من يحبونه، إما حاملاً لا يؤبه له ولا يهتدي للتحفظ منه، لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة في طلعه. وإما جليلاً لا تلحقه الظنن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها.
وما أكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسايب والثوبين الأحمرين وإني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأيتها.
أو ذرات صناعة يقرب بها من الأشخاص. فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك.
أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بما عليه. فكم منيع سهل بهذه الأوصاف، وعسير يسر، وبعيد قرب. وجموح أنس، وكم داهية دهمت الحجب المصونة، والأسرار الكثيف، والمقاصير المحروسة، والسدد المضبوطة، لأرباب هذه النعوت. ولولا أن أنبه عليها لذكرتها، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد. والسعيد من وعظ بغيره. وبالضد تمييز الأشياء. أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره، ولا أزال عن الجميع ظل العافية.
خبر: وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة، ويعقد الكتاب في جناحها. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

لديها وجاءت نحوه بالبشائر

تخيرها نوح فما خاب ظنه

رسائل تهدي في قوادم طائر

سأودعها كتبي إليك فهاكها

الباب الثاني عشر

طي السر

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود الحب إن سئل، والتصنع بإظهار الصبر، وأن يرى أنه عز هاة خلى. ويأبى السر الدقيق، ونار الكلف المتأججة في الضلوع، إلا ظهوراً في الحركات والعين، ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر. وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال، وربما يكون السبب في الكتمان تصاون الحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى، وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة. وأما استحسان الحس وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبيها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيح باليقين. وأما الحبة فحلقة، وإنما يملك الإنسان حركات حوارحه المكتسبة. وفي ذلك أقول:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى
وسيان عندي فيك لا ح وساكت
يقولون جانبك التصاون جملة
وأنت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه
صراحاً وزى للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعه في محكم الذكر ثابت
إذا لم أوقع محرماً أتقى به
محبي يوم البعث والوجه باهت
فلمست أباي في الهوى قول لأثم
سواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره
وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

خير: وإني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه، فرام ححده إلى أن غلظ الأمر، وعرف ذلك في شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض. وكان من عرض له بشيء نحوه وقبحه. إلى أن كان من أراد الخطوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه في إنكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك، فسر بهذا. ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره، وهو ينتفي غاية الانتفاء، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تنقيف، فقطع كلامه المتكلم معه. فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره. فقيل له: ما عدا عما بدا. فقال: هو ما تظنون، عذر من عذر، وعدل من عدل. ففي ذلك أقول شعراً منه:

ما عاش إلا لأن الموت يرحمه
مما يرى من تباريح الضنى فيه

وأنا أقول:

دموع الصب تنسفك
وسائر الصب ينتهك
كأن القلب إذ يبدو
قطاة ضمها شرك
فيا أصحابنا قولوا
فإن الرأي مشترك
إلى كم ذا أكاثمه
وما لي عنه مترك

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان، والتصاون لطبع الحب وغلبته، فيكون صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين. وربما كان سبب الكتمان إبقاء الحب على محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع. وفي ذلك أقول:

درى الناس أنني فتى عاشق
كثيب معنى ولكن بمن
إذا عاينوا حالتي أيقنوا
وإن فتنشوا رجعوا في الظن
كخط يرى رسمه ظاهراً
وإن طلبوا شرحه لم بين
كصوت حمام على أيقة
يرجع بالصوت في كل فن
تلد بفحواه أسماعنا
ومعناه مستعجم لم بين
يقولون بلله سم الذي
نفى حبه عنك طيب الوسن
وهيهات دون الذي حاولوا
ذهاب العقول وخوض الفتن
فهم أبداً في اختلاج الشكوك
بظن كقطع وقطع كظن
وفي كتمان السر أقول قطعة، منها:

للسر عندي مكان لو يحل به
حي إذا لا اهتدى ريب المنون له
أميته وحياة السر ميته
كما سرور المعنى في الهوى الوله

وربما كان سبب الكتمان توقي الحب على نفسه من إظهار سره، لجلالة قدر المحبوب.

خير: ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح أم المؤيد رحمه الله. فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعها، فأمر بقتلها.

خير:

وعلى مثل هذا قتل أحمد بن مغيث. واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضال. وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير.

ويحكى عن الحسن بن هانئ أنه كان مغرمًا بحب محمد بن خارون المعروف بابن زبيدة. وأحس منه ببعض ذلك فانتهره، على إدامة النظر إليه. فذكر عنه أنه قال إنه كان لا يقدر أن يديم النظر إليه إلا مع غلبة السكر على محمد. وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به. فإني أدري من كان محبوبة له سكناً وجليساً، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها. وهذا ضرب من

السياسة، ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغابة وأبعد النهاية، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمتع الثقة بملك الفؤاد، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجني، فكان أحياناً فصار عبداً، ونظيراً فعاد أسيراً، ولو زاد في بوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطيف، ولا تقطع القليل والكثير، ولعاد عليه بالضرر.

وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب على الإنسان، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى الحب من محبوبه انحرافاً وصدماً ويكون ذا نفس أبية، فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو، أو يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه.

الباب الثالث عشر

الإذاعة

وقد تعرض في الحب الإذاعة، وهو منكر ما يحدث من أعراضه، ولها أسباب، منها: أن يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيا بزي المحبين ويدخل في عدادهم، وهذه خلافة لا ترضى، وتخليج بغيض، ودعوى في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهر على الحياء. فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً. وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح في هيئة الحسن. وهنالك يرى الخير شراً، والشر خيراً. وكم مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره، وأباح حريمه، وأهمل حماه فصار بعد الصيانة علماً، وبعد السكون مثلاً. وأحب شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره، ولطالت استعاذته منه. فسهل ما كان وعراً، وهان ما كان عزيزاً، ولان ما كان شديداً.

ولعهدي يفتي من سروات الرجال وعلية إخواني قد دهى بمحبة جارية مقصورة هام بما وقطعه حبها عن كثير من مصالحه، وظهرت آيات هواء لكل ذي بصر، إلى أن كانت هي تعذله على ماظهر منه مما يقوده إليه هواه.

خير: وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: كنت بين يدي أبي الفتح والدي رحمه الله وقد أمرني بكتاب أكتبه إذ لحت عيني جارية كنت أكلف بها، فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها. وبمت أبي وظن أنه عرض لي عارض. ثم راجعتني عقلي فمسحت وجهي ثم عدت واعتذرت بأنه غلبي الرعاف.

وأعلم أن هذا داعية نفار المحبوب، وفساد في التدبير، وضعف في السياسة وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سنة وطريقة، متى تعداها الطالب، أو خرق في سلوكها انعكس عمله عليه، وكان كده عناء. وتعبه هباء، وبخته وباء. وكلما زاد عن وجه السيرة انحرافاً وفي تجنبها إغراقاً وفي غير الطريق إيغالاً ازداد عن بلوغ مراده بعداً. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

ولا تسع جهراً في اليسير تريده

ولا تسع في الأمر الجسيم تهزاءً

عليك فإن الدهر جم وروده

وقابل أفانين الزمان متى يرد

يسير بغير والشريد شريده

فأشكالها من حسن سعيك يكفك ال

وإشعاله بالنفخ يلطفا وقوده

ألم تبصر المصباح أول وقده

فنفخك يذكيه وتبدو مدوده

وإن يتصرم لفحه ولهيبه

خير:

وإني لأعرف من أهل قرطبة من أبناء الكتاب وجملة الخدمة من اسمه أحمد بن فتح، كنت أعهده كثير التصاون، من بغاة العلم وطلاب الأدب ييز أصحابه في الانقباض، ويفوقهم في الدعة، لا ينظر إلا في حلقة فضل، ولا يرى إلا في محفل مرضى، محمود المذاهب، جميل الطريقة، باتناً بنفسه، زاهياً بما ثم أبعدت الأقدار داري من داره، فأول خير طراً علي بعد نزولي شاطبة أنه خلج عذاره في حب فتى من أبناء الفتانين يسمى إبراهيم بن أحمد أعرفه، لا تستأهل صفاته محبة من بيته خير وتقدم؛ وأموا عريضة ووفر تالد، وصح عندي أنه كشف رأسه وأبدى وجهه ورمى رسنه وحسر محياه وشمر عن ذراعيه وصد صد الشهوة، فصار حديثاً للسمار ومدافعاً بين نقلة الأخبار، وتهودى ذكره في الأقطار، وجررت نقلته في الأرض راحلة بالتعجب، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء، وإذاعة السر، وشنعة الحديث. وفتح الأحلوثة وشروء محبوبه عنه جملة. والتحظير عليه من رؤيته ألبتة، وكان غنياً عن ذلك ويمندوحوه ومعزل ربح عنه. ولو طوى مكنون سره، وأخفى بليات ضميره لاستدام لباس العافية؛ ولم ينهج برد الصيانة؛ ولكن له في لقاء من يلي به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمال؛ وتعلل كاف؛ وإن حبل العذر ليقطع به، والحجة عليه قائمة؛ إلا أن يكون مختلطاً في تمييزه؛ أو مصاباً في عقله بجليل ما فدحه. فرمما آل ذلك لعذر صحيح، وأما إن كانت بقية من عقل أو ثبتت مسكه فهو ظالم في تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به. هذا غير صفة أهل الحب؛ وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة إن شاء الله تعالى.

ومن أسباب الكشف وجه ثالث وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط؛ وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدرًا أو ملاً أو كراهة؛

فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار. وهذا أشد العار وأقبح الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف. وربما كان الكشف من حديث ينتشر وأفويل تفسو، توافق قلة مبالاة من الحب بذلك، ورضى بظهور سره، إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤمله. وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القواد، قرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقتنعن ولا يصدقن عشق عاشق لمن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن، ولا أدري ما معنى هذا، على أنه يذكر عنهن العفاف، وأي عفاف مع امرأة أقصى منهاها وسرورها الشهرة في هذا المعنى.

الباب الرابع عشر

الطاعة

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبيه، وصرفه طباعه قسراً إلى طباع ن يحبه وربما يكون المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حمى الأنف، أبي الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب، وتبورط عمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة لياناً، والصعوبة سهلة والمضاء كلاله؛ والحمية استسلاماً. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

وهل لتصاريف ذا الدهر حد

فهل للوصال إلينا معاد

وأضحى الغزال الأسير أسد

فقد أصبح السيف عبد القضيبي

وأقول شعراً منه:

كذائب نقر زل من يد جهبذ

وإني وإن تعتب لأهون هالك

فيا عجباً من هالك مثلذذ

على أن قتلى في هواك لذاذة

ومنها:

لأعناهم عن هرمزان وموبذ

ولو أبصرت أنوار وجهك فارس

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد؛ فترى المحب حينئذ يكتفم حزنه ويكظم أسفه وينطوي على علته. وإن الحبيب متجن، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجرمة، والمرء منها برئ، تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته. وإني لأعرف من دهى يمثل هذا فما كان ينفك من توجه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهونقي الجلد. وأقول شعراً إلى بعض إخواني، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه:

تدان وللهجران عن قربه سخط

وقد كنت تلقاني بوجه لقربه

على أنه قد عيب في الشعر الوخط

وما تكره العتب اليسير سجيبي

وقد يحسن الخيلان في الوجه والنقط

فقد يتعب الإنسان في الفكر نفسه

إذا أفرطت يوماً وهل يحمد الفرط

تزين إذا قلت ويفحش أمرها

ومنه:

يبكي إذ القرطاس والحبر والخط

أعنه فقد أضحى لفرط همومه

ولا يقولن قائل إن صبر الحب على دلة الخبوء ذنابة في النفس فقد أخطأ، وقد علمنا أن الخبوء ليس له كفواً ولا نظيراً فيفترض بأذاه، وليس سبه وجفاه مما يعبر به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء، ولا في مقاعد الرؤساء، فيكون الصبر جاراً للمذلة، وضراعة قائدة للاستهانة، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأتمته التي يملك رقبها، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها فكيف الانتصار منها. وسبل الامتعاظ من السبب غير هذه، إنما ذلك بين عليية الرجال الذين تحصل أنفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يوقعونها سدى ولا يلقونها هملاً، وأما الخبوء فصعدة ثابتة، وقضيب مناد، يجف ويرضى متى شاء لا لعنى. وفي ذلك أقول:

فالحب فيه يخضع المستكبر

ليس التذلل في الهوى يستنكر

قد ذل فيها قلبي المستبصر

لا تعجبوا من ذلتي في حالة

فيكون صبرك ذلة إذ تصبر

ليس الحبيب مماثلاً ومكافياً

هل قطعها منك انتصاراً يذكر

تفاحة وقعت فألم وقعها

خبر: وحدثني أبو دلف الوراق عن ملسمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمرجيطى أنه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير ابن عمرو وأحمد بن محمد جدير رحمه الله: في هذا المسجد كان مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حادثته لعشق بعجيب فتى الوزير أبي عمرو المذكور. وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب، حتى أخذته الحرس غير ما مرة في الليل في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجهه ضرباً ويلطم خديه وعينيه، فيسر بذلك ويقول: هذا والله أقصى أمني والآن قرت عيني، وكان على هذا زماناً بماشيه. قال أبو دلف: ولقد حدثنا مسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يرى من وجهة مقدم بن الأصفر وعرض جاهه وعافيته، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلت جداً واختص بالمظفر بن أبي عامر اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته وأهله وجرى على يديه من بنیان المساجد والسقايات وتسهيل وجوه الخير غير قليل، مع تصرفه في كل ما يتصرف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك. خبر: وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يهبها حباً شديداً، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها. فقالت له ساخرة به، وكان عظيم اللحية: إن لحيتك أستشع عظمها فإن حذفت منها كان ما ترغبه. فأعمل الجملين فيها حتى لطفت، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به. وكان في جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر: اعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل فأجابته إليه. فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار الفادح على رورعه ونسكه واجتهاده.

فأنا أدكت سعيداً هذا وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة وانتهاهم إياها وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقهه. وكان أخوه عبد الملك ابن منذر متهماً بهذا المذهب أيضاً. ولي خطبة الرد أيام الحكم رضي الله عنه وهو الذي صلبه المنصور بن أبي عامر إذ اتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يبايعون سراً لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم، فقتل عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع من اتهم. وكان أبوهم قاضي القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضاً. وكان أخطب الناس وأعلمهم بكل فن وأورعهم وأكثرهم هزلاً ودعابة. وحكم المذكور في الحياة في حين كتابتي إليك بهذه الرسالة قد كف بصره وأسن جداً.

خبر:

ومن عجيب طاعة الحب لمحبهه أني أعرف من كان سهر الليالي الكثيرة ولقى الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد ثم ظفر بمن يجب وليس به امتناع ولا عنده دفع، فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه، لا تعففاً ولا تحوقاً لكن توقفاً عند موافقة رضاه، ولم يجد من نفسه معيناً على إتيان ما لم ير له إليه نشاطاً وهو يجد ما يجد. وإني لأعرف منقل هذا الفعل ثم تندم لعذر ظهر من المحبوب. فقلت في ذلك:

كمضي البرق تمضي الفرص

هي عندي إذ تولت غصص

وانتهز صبراً كبارز يقتص

غافص الفرصة واعلم أنها

كم أمور أمكنت أمهلها

بادر الكنز الذي ألفيته

ولقد عرض مثل هذا بعينه لأبي المظفر عبد الرحمن بن محمود صديقنا وأنشدته أبياتاً لي فطار بما كل مطار، وأخذها مني فكانت هجيراً. خير: ولقد سألتني يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيام كوني بالمدينة، وكان طويل اللسان جداً مثقفاً للسؤال في كل فن، فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه: إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع؟ قلت: أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره. فقال: لكني لا أرى ذلك بل أؤثر هواه على هواي ومراده على مرادي، واصبر ولو كان في ذلك الحتف. فقلت له: إنما أحببته لنفسي ولا لتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقود أصلي وأقفو طريقي في الرغبة في سرورها. فقال لي: هذا ظلم من القياس، أشد من الموت ما تمخى له الموت. وأعز من النفس ما بذلت له النفس. فقلت له: إن بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً، ولو أمكنك ألا تبدلها لما بذلتها، وتركت لقاء اختياراً منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها. فقال لي: أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب يلتفت إليه. فقلت له: إذا كان صاحبه مؤمناً فقال: وأي آفة أعظم من الحب.

الباب الخامس عشر

المخالفة

وربما اتبع الحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوه، وتعهد مسرته منه على كل الوجوه سخطاً ورضى. ومن ساعده على الوقت هذا وثبت جناحه وأتيحت له الأقدار استوفى لذته جميعها وذهب غمه وانقطع همه ورأى أمله وبلغ مرغوبه. وقد رأيت من هذه صفته، وفي ذلك أقول أبياتاً، منها:

من رشأ مازال لي ممرضاً

ولا أبالي سخطاً من رضا

أطفي به مشعل جمر الغضا

إذا بلغت نفسي المنى

فما أبالي الكره من طاعة

إذا وجدت الماء لا بد أن

الباب السادس عشر

العادل

وللحب آفات، فأولها العادل، والعادل أقسام، فأصلهم صديق قد أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه فعذله أفضل من كثير المساعدات؟ وهي من الحظ والنهي، وفي ذلك زاجر للنفس عجيب، وتقوية لطيفة لها عرض، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة، ولا سيما إن كان رفيقاً في قوله حسن التوصل إلى ما يورد من المعاني بلفظه، عالماً بالأوقات التي يؤكد فيها النهي، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر. والساعات التي يكون فيها واقفاً بين هذين، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعره، وقبوله وعصيانه. ثم عادل زاجر لا يفيق أبداً من الملامة، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل. ووقع لي مثل هذا، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه، وذلك أن أبا السرى عمار بن زياد صديقنا أكثر من عدل على نحو نحوته وأعان على بعض من لامي في ذلك الوجه أيضاً، وكنت أظن أنه سيكون معي مخطئاً كنت أو مصيباً. لو كيد صداقتي وصحيح أخوتي به.

ولقد رأيت من اشتد وجوده وعظم كلفه حتى كان العذل أحب شيء إليه، ابرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته، ويحصل مقاومته للأئمة وغلته إياه. كالمملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه، ويسر بما يقع منه في ذلك وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك أقول أبياتاً، منها:

أحب شيء إلي اللوم والعذل
كأنني شارب بالعذل صافية
كي أسمع اسم الذي ذكره لي أمل
وباسم مولاي بعدي الشرب أنتقل

الباب السابع عشر

المساعد من الإخوان

ومن الأسباب المتمنة في الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً، لطيف القول، بسيط الطول، حسن المآخذ دقيق المنفذ. متمكن البيان، مرهف اللسان، جليل الحلم، واسع العلم، قليل المخالفة، عظيم المساعفة شديد الاحتمال صابراً على الإدلال، جم الموافقة، جميل المخالفة، مستوى المطابقة، محمود الخلاق، مكفوف البوائق، محتوم المساعدة، كارهاً للمباعدة، نبيل المدخل، مصروف الغوائل، غامض المعاني عارفاً لا لأمان، طيب الأخلاق، سري الأعراق، مكتوم السر، كثير البر، صحيح الأمانة، مأمون الخيانة، كريم النفس، نافذ الحس، صحيح الحلدس، مضمون العون، كامل الصون، مشهور الوفاء، ظاهر الغناء، ثابت القرينة، مبذول النصيحة، مستيقن الوداد، سهل الانقياد، حسن الاعتقاد، صادق اللهجة، خفيف المهجة، عفيف الطباع، رحب الذراع، واسع الصدر، متخلقاً بالصبر، يألف الإحاض، ولا يعرف الإعراض، يستريح إليه بلائله، ويشاركه في حلوة فقره، ويفاوضه في مكتوماته، وإن فيه للحب لأعظم الراحة، وأين هذا، فإن ظفرت به يدك فشدتها عليه شد الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطاركه وتالدك، فمعه يكمل الأنس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً، ورأياً حسناً، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ما حملوه من شديد الأمور وطوقه من باهض الأحمال. ولكي يستغنوا بأرائهم ويستمدوا بكفائتهم. وإلا فليس في قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها.

ولقد كان بعض المحبين، لعدم هذه الصفة من الإخوان وقلة ثقته منهم لما حربه من الناس وأنه لم يعد من باح إليه بشيء من سره أحد وحين إما إزاء على رأيه وإما إذاعة لسره، أقام الوحدة مقام الأنس. وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس، ويناجي الهوى، ويكلم الأرض، ويمجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه والخزون في الزفير؛ فإن الهوموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم ينض منها شيء باللسان، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك غماً ويموت أسفاً. وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء. فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواظؤ على طيه إذا اطلعن عليه ما ليس عند الرجال، وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة. وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات، لأن الفتيات منهن ربما كشفتن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في الندرة. وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن. خير: وإني لأعمل امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواربها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقه وأن بينهما معاني مكروهة، وقيل لها: إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها حلية أمرها. فأخذتها وكانت غليظة المقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جلداء الرجال، رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها، فلم تفعل البتة.

خير:

وإني لأعلم امرأة حليمة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلف بها، وكان في غير ملكها، فعرفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهياً له ذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عصم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سر كما أحداً

أبداً، ولو أمكنتني أن أبتاعها لك من مالي ولو أحاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد؛ وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطة الرجاء من الرجال، وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلّة. وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتألف ووجوهه لاشغل هن غيره ولا خلقن لسواه. والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومكابدة الأسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض، وهذا كله متحيف للفراغ، صارف عن طريق البطل وقرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر؛ لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال، وتحن إلى النكاح ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري؛ لأنني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن. ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي. وهن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار وردبني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني مذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أرى منهن، وأصل ذلك غير شديدة طبع عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل. وسيأتي ذلك مفسراً في أبوابه إن شاء الله تعالى.

الباب الثامن عشر

الرقيب

ومن آفات الحب الرقيب، وإنه لحمى باطنة، ويرسام ملح، وفكر مكب. والرقباء أقسام، فأولهم مثقل بالجلوس غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه، وعزما على إظهار شيء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث. ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشد منها، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائق حال دون المراد وقطع متوفر الرجاء. خبير: ولقد شاهدت يوماً محبين تقي مكان قد ظنا أنهما انفردا فيه وتأهبا للشكوى فاستحليا ما هما فيه من الخلوة، ولم يكن الموضع حمي، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستقلانه، فرأى فعديل إلي وأطال الجلوس معي، فلو رأيت الفتى الحب وقد تمازج الأسف البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

ويبيدي حديثاً لست أرضى فنونه

يطيل جلوساً وهو أثقل جالس

ولبنان والصمان والحرب دونه

شمام ورضوى واللكام ويذبل

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطرف، وتوجس من مذهبهما شيئاً، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك، فيدمن الجلوس، ويطيل القعود، ويتخفى بالحركات، ويرمق الوجوه، ويحصل الأنفاس. وهذا أعدى من الحرب، وإنّي لأعرف من هم أن يباطش رقيباً هذه صفته. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

أعظم بهذا الوصال غما

مواصل لا يغب قصداً

يزول كالاسم والمسمى

صار وصرنا لفرط مالا

ثم رقيب على المحبوب، فذلك لا حيلة فيه إلا بترضية. وإذا أرضى فذلك غاية اللذة، وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في أشعارها. ولقد شاهدت من تطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيباً له، ومتغافلاً في وقت التغافل، ودافعاً عنه وساعياً له. ففي ذلك أقول:

على سيدي عمداً ليبعدني عنه

ورب رقيب ارقبوه فلم يزل

إلى أن غدا خوفي له آمناً منه
فعاد محباً ما لنعمته كنه

فما زالت الألفاظ تحكم أمره
وكان حساماً سل حتى يهدني

وأقول قطعة، منها:

وكان سما فصار درياقاً

صار حياة وكان سهم ردي

وإني لأعرف من رقب على بعض من كان يشفق عليه رقيباً وثق به عند نفسه، فكان أعظم الآفة عليه وأصل البلاء فيه.

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلة ولا وجد إلى ترضيه سبيل فلا طمع إلا بالإشارة بالعين همساً وبالحاجب أحياناً والتعريض اللطيف بالقول، وفي ذلك متعة وبلاغ إلى حين يقنع به المشتاق. وفي ذلك أقول شعراً أوله:

وفي لمن والاه ليس بناكت

على سيدي مني رقيب محافظ

ومنه:

ويفعل فيها فعل بعض الحوارث
وفي كل عين مخبر بالأحداث

ويقطع أسباب اللبانة في الهولاي
كأن له في قلبه ريبة ترى

ومنه:

وقد خصني ذو العرش منهم بثالث

على كل من حولي رقيان رتبا

وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتحن بالعشق قديماً ودهى به وطالت مدته فيه ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكان راغباً في صيانة من رقب عليه، فتبارك الله أي رغبة تأتي منه، وأي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته. وفي ذلك أقول:

وقاسى الوجد وامتنع المناما

رقيب طالما عرف الغراما

وكاد الحب يورده الحماما

ولاقي في الهوى ألما أليما

ولم يضع الإشارة والكلاما

وأتقن حلية الصب المعنى

وصار يرى الهوى عاراً وذاما

وأعقبه التسلي بعد هذا

ليبعد عنه صباً مستهاماً

وصير دون من أهوى رقيباً

وأي مصيبة حلت لماما

فأي بلية صبت علينا

ومن طريف معاني الرقباء أني أعرف محبين مذهبهما واحد في حب محبوب واحد بعينه، فلعهدي بهما كل واحد منهما رقيب على صاحبه. وفي ذلك أقول:

كلاهما عن خذنه منحرف

صبان هيمانان في واحد

ولا يخلى الغير أن يعتلف

كالكلب في الآرى لا يعتلف

الباب التاسع عشر

الوشى

ومن آفات الحب الوشى، وهو على ضربين أحدهما واش يريد القطع بين المتحابين فقط، وإن هذا لأفترهما سوءة، على أنه السم الذعاف والصاب الممقر والحتف القاصد والبلاء الوارد. وربما لم ينجع ترقيشه. وأكثر ما يكون الوشى فىلى المحبوب، وأما الحب فهيهات، حال الجريض دون القريض. ومنع الحرب من الطرب، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى. وقد علم الوشاة ذلك، وإنما يقصون إلى الخلى البال، الصائل بمجزة الملك، المتعجب عند أقل سبب.

وإن للوشاة ضرباً من التنقيط، فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يجب أنه غير كاتم للسرى، وهذا مكان صعب المعاناة، بطيء البرء إلا أن يوافق معارضاً للمحب فى محبته وهذا أمر بوجب النفر، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تساعده الأقدار بالإطلاع على بعض أسرار من يجب، يعد أن يكون المحبوب ذا عقل، وله حظ من تمييز، ثم يدعه والمطاوله. فإذا تكذب عنده نقل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسمع لسره إذاعة علم أنه إنما زور له الباطل، واضمحل ما قام فى نفسه ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحبن، وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه وحدث فى حب لم يكن، وركبته رحمة، وأظلمته فكرة. ودهمت حيرة، إلى إن ضاق صدره وباح بما نقل إليه. فلو شاهدت مقام الحب فى اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مطاع، وبناء مشدود الأواحي، وسنان نافذ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف، والإنكار والتوبة والرمي بالمقاليذ، فيعد لأي ما صلح الأمر بينهما.

وربما ذكر الواشى أن ما يظهر الحب من المحبة ليست بصحيحة، وأن مذهبه فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره. وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر معاناة مما قبله، فحالة الحب غير حالة التلذذ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما. وقد وقع من هذا نبذ كافية فى باب الطاعة. وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المحرقة والوجع الفاشى فى الأعضاء، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون الحب فى حسن الوجه حلوا الحركات مرغوباً فيه مائلاً إلى اللذات دنياوي الطبع، والمحبوب امرأة جليلة القدر سرية المنصب، فأقرب الأشياء سعيها فى إهلاكه وتصديدها لحتفه. فكم صريع على هذا السبب، وكم من سقى السم فقطع أمعاءه لهذا الوجه. وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير، والد أحمد المنتسك، وموسى وعبد الرحمن، المعروفين بابني لبنى، من قبل قطر الندى جاريتيه. وفى ذلك أقول محذراً لبعض أخواتي قطعة، منها:

جهول لأسباب الردي متأرض

وهل يأمن النسوان غير مغفل

ترشفه من طيب الطعم أبيض

وكم وارد حوضاً من الموت أسود

والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحوب ويستأثر به وهذا أشد شيء وأقطع وأجزم لاجتهاد الواشى واستفادة جهده. ومن الوشاة جنس ثالث، وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما، وهذا لا يلتفت إليه إذا كان الحب مساعداً. وفى ذلك أقول:

وما بسوي أخبارنا يتنفس

عجبت لو اش ظل يكشف أمرنا

أنا أكل الرمان والولد تضرس

وماذا عليه من عنائي ولوعتي

ولا بد أن أورد ما يشبه ما نحن فيه، وإن كان خارجاً منه، وهو شيء فى بيان التنقيط والنمائم. فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا فى أول الرسالة، وما فى جميع الناس شر من الوشاة، وهم النمامون، وإن النميمة لطبع يدل على تنن الأصل ورداة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة، ولا بد لصاحبه من الكذب والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمائم كذاب، وما أحببت كذاباً قط، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل، وأخذ ما ظهر من أخلاقه، حاشى من أعلمه يكذب فهو عندي ماح لكل محاسنه، ومعف على جميع خصاله، ومذهب كل ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانته حيث كان. وما رأيت قط ولا أخبرني مز رأى كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأت قط بقطيعة ذيب معرفة إلا أن أطلع أله على الكذب، فحينئذ أكون أنا القاصد

إلى مجانبته والمتعرض لمتاركته، وهي سمة ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مزنون في نفسه إليه بشق، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته. نعوذ بالله من الخذلان.

وقال بعض الحكماء: أخ من شئت واجتنب ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفعلك فيضرك والملول فشأنه أوثق ما تكون به لطول الصحب وتأكدها يخذلك والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر. وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسن العهد من الإيمان. وعنه عليه السلام: لا يؤمن الرجل بالإيمان كله حتى يدع الكذب في المزاح حدثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن رفاعة عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه، والآخر منهما مسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

والله عز وجل يقول: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل هل يكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا. حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك بن أنس عن صفوان بن سليم. وبهذا الإسناد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا خير في الكذب في حديث سئل فيه. وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول. لا يزال العبد يكذب وينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب فيكتب عن الله من الكذابين.

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر ويهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار.

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، إني أستتر بثلاث الخمر والزنا والكذب. فمري أيهما أترك. قال: اترك الكذب فذهب منه. ثم أراد الزنا ففكر فقال: آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت. نعم، حدي، وإن قلت: لا. نقضت العهد، فتركه. ثم كذلك في الخمر. فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني تركت الجميع. فالكذب أصل كل فاحشة، وجامع كل سوء، وحالب لقت الله عز وجل. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاث من كن فيه كان منافقاً: من إذا وعد أخلف، وإذا تحدث كذب، وإذا أؤتمن خان.

وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل، والله الحق وهو يجب الحق وبالحق قامت السموات والأرض. وما رأيت أحزى من كذاب، وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمام والكذب، ولا أكدت البغضاء والإحن المرديّة إلا بنمام لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والحزى والذل، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه فضلاً عن غيره بالعين التي ينظر بها من الكلب. والله عز وجل يقول: "ويل لكل همزة لمزة". ويقول جل من قائل: "يا أيها الذين آمنوا إذ جاءكم فاسق بنياً فتبينوا". فسمى النقل باسم الفسوق. ويقول: "ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم". والرسول عليه السلام يقول: "لا يدخل الجنة قتات". ويقول: "وإياكم وقاتل الثلاثة". يعني المنقل والمنقول إليه والمنقول عنه والأحنف بقول: الثقة لا يبلغ، وحق لذي الوجهين ألا يكون عند الله وجيهاً. وهو ما يجعله من أحسن الطبائع وأرذلها.

ولي إلى أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفي الشاعر رحمه الله، وقد نقل إليه رجل من إخواني عني كذباً على جهة الهزل، وكان هذا الشاعر كثير الوهم فأغضبه وصدقه، وكلاهما كان لي صديقاً، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ولكنه كان كثير المزاح جم الدعابة. فكتبت إلى أبي إسحاق، وكان يقول بالخير، شعراً منه:

تقال ولا تدري الصحيح بما تدري

ولا تتبدل قالة قد سمعتها

فلاقي الردى في الأفيح المهمة القفر

كمن قد أراق الماء للآل إن بدا

وكتبت إلى الذي نقل عني، شعراً منه:

فساد علاج النفس طي صلاحها

ولا تزعماً في الجد مزحاً كمولج

كمثل الحبارى تتقي بسلاحها

ومن كان نقل الزور أمضى سلاحه

وكان لي صديق مرة؛ وكثر التدخيل بيني وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه، وطبعت على التأني والترص والمسالمة ما أمكنت، ووجدت بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة، المودة، فكتبت إليه شعراً منه:

بدت ما ادعى حسن الرماية وهرز

ولي في الذي أبدى مرام لوانها

وأقول مخاطباً لعبيد الله بن يحيى الجزيري الذي يحفظ لعمه الرسائل والبلغه وكان طبع الكذب قد استولى عليه واستحذ على عقله وألفه وألفة النفس الأمل ويؤكد نقله وكذبه بالإيمان المؤكدة المغلطة، مجاهراً بما أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به، لا يزال يحدث من قد صح عنده أنه لا يصدقه فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالكذب:

وحال أرتتي قبح عقدك بينا

بدا كل ما كتمته بين مخبر

كما تثبت الأحكام بالحبل الزنا

وكم حالة صارت بياناً بحالة

وفيه أقول قطعة منها:

وأقطع بين الناس من قصب الهند

أنم من المرأة في كل ما درى

تحليله بالقطع بين ذوي الود

أظن المنايا والزمان تعلمنا

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة:

وأقبح من دين وفقير ملازم

وأكذب من حسن الظنون حديثه

وأهون من شكوى إلى غير راحم

وأمر رب العرش أضيع عنده

فلم يبق شتماً في المقال أشاتم

تجمع فيه كل خزي وفضحة

وأبرد برداً من مدينة سالم

وأثقل من عدل على غير قابل

جمعن على حران حيران هائم

وأبغض من بين وهجر ورقبة

وليس من نبه غافلاً، أو نصح صديقاً، أو حفظ مسلماً، أو حكى عن فاسق وأحدث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب، ولا تعمد الضغائن، متقللاً.

وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوئتان في الباطن، أحدهما داء والأخرى دواء والتأقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضى في الديانة، ونوى به التشتيت بين الأولياء، والتضريب بين الإخوان، والتحرش والتوبيش والترقيش. فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمه، ولم يتق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من أموره دنياه ومعامله أهل زمانه، فليجعل دينه دليلاً له وسراجاً يستضيء به، فحيثما سلك به سلك وحيثما أوقفه وقف. فشارع الشريعة وبعث الرسول عليه السلام ومرتب الأوامر والنواهي أعلم بطريق الحق وأدري بعواقب السلامة ومغيبات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه؛ وباحث بقياسه في ظنه.

الباب العشرون

الوصل

ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع. بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم ورحمة من الله عظمة. ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأمان؛ ومنتهى الأراجي. ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للذنو من السلطان ولا للمال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروح على المال، من الموقع في النفس ما للوصل؛ لا سيما بعد طول الامتناع، وحلول المجر حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لميب الشوق، وتنصرم نار الرجاء. وما أصناف النبات بعد غب القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ولا خريير المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنق القصور البيض قد أهدقت بها الرياض الخضمر، بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه، وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه. وأنه لمعجز ألسنة البلغاء، ومقصر فيه بيان الفصحاء، وعنده تطيش الألباب، وتعزب الأفهام. وفي ذلك أقول:

وسائل لي عما لي من العمر
أجبتة ساعة لا شيء أحسبه
وقد رأى الشيب في الفودين والعذر
فقال لي كيف ذا بينه لي فلقد
عمرأ سواها بحكم العقل والنظر
فقلت إن التي قلبي بها علق
أخبرتني أشنع الأنباء والخبر
فما أعد ولو طالت سني سوى
قبلتها قبلة يوم على خطر
تلك السويعة بالتحقيق من عمري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب، وهو ينقسم قسمين، أحدهما الوعد بزيارة الحب لمحبيه وفيه أقول قطعة، منها:

أسامر البدر لما أبطأت وأرى
فبت مشترطاً والود مختلطاً
في نوره من سنا إشراقها عرضاً
والوصل منبسطاً والهجر منقبضاً

والثاني انتظار الوعد من الحب أن يزور محبوه، وإن لمبادئ الوصل وأوائل الإسعاف لتولجاً على الفؤاد ليس لشيء من الأشياء. وإني لأعرف من كان ممتحناً بهوى في بعض المنازل المصاحبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل إلى غير النظر والحادثة زماناً طويلاً، ليلاً متى أحب ونهاراً، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة، ومكنته بإسعاد بعد يأسه، لطول المدة ولعهدي به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً، فقلت في ذلك:

برغبة لو إلى ربي دعوت بها
ولو دعوت بها أسد الفلا لغدا
لكان ذنبي عند الله مغفوراً
فجاد باللثم لي من بعد منعته
إضرارها عن جميع الناس مقصوراً
كشارب الماء كي يطفي الغليل به
فاهتاج من لوعتي ما كان مغموراً
فغص فانصاع في الأجداث مقبوراً

وقلت:

جرى الحب مني مجرى النفس
وأعطيت عيني عنان الفرس

وربما جاد لي في الخلس

فزاد أليلاً بقلبي اليبس

يببس رمى فيه رام قبسي

ولي سيد لم يزل نافراً

فقبلته طالباً راحة

وكان فؤادي كتبت هشيم

ومنها:

عنيت بياقوتة الأنداس

ويا جوهر الصين سحراً فقد

حبر: وإني لأعرف حارية اشتد وحدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، وكثر غمها وطال أسفها إلى أن ضنيت بحبه، وهو بقرارة الصبي لا يشعر. ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه لأنها كانت بكرأ بخاتمها، مع الإجلال له عن المحوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافق. فلما تهادى الأمر وكانا إلفين في النشأة، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأي كانت تنق بها لتوليها تربيتهما، فقالت لها: عرضي له بالشعر. ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه في كل هذا، ولقد كان لفتناً ذكياً لم يظن ذلك فيميل إلى تنبش الكلام بوجهه، إلى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين، ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصوناً بعيداً عن المعاصي، فلما حان قيامها عنه بدرت إليه قبلته في فمه ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة، وهي تنهادى في مشيها، كما أقول في أبيات لي:

قضيب نرجسة في الروض مياس

كأنها حين تخطو في تأودها

ففيه من وقعها خطر ووسواس

كأنما خلدتها في قلب عاشقها

كد يعاب ولا بطء به باس

كأنما مشيها مشي الحمامة لا

فبهت وسقط في يده وف في عضده ووجد في كبده وعلته وجمّة، فما هو إلا أن غابت عنه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت أنفاسه وترادفت أرجاله وكثر قلقه وطال أرقه، فما غمض تلك الليلة عيناً، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرأ، إلى أن حدثت جملتها يد النوى. وإن هذا لمن مصائد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل. ومن الناس من يقول: إن دوام الوصل يودي بالحب، وهذا هجين من القول، إنما ذلك لأهل الملل، بل كلما زاد وصلاً زاد اتصالاً. وعني أخبرك أي ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظلماً. وهذا حكم من تداوى برأيه وإن ربه عنه سريعاً. ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وحدثني إلا مستزيداً، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقتني فترة، ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجمل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وحدي ولا قاض أقل لبانة من لباناتي، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت ولوعاً، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي، فقلت في ذلك المجلس:

وادخلت فيه ثم أطبق في صدري

وددت بأن القلب شق بمدية

إلى مقتضى يوم القيامة والحشر

فأصبحت فيه لا تحلين غيره

سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

تعيشين فيه ما حبيت فإن أمت

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء، وأما الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الحجر، وبعدا عن الملل، وفقدنا العذال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقاً داراً، وعيشاً قاراً، وزماناً هادياً، وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال، وطالت صحبتها واتصلت إلى وقت حلول الحمام الذي لا مرد له ولا بد منه، هذا عطاء لم يحصل عليه أحد، وحاجة لم تقض لكل طالب، ولو لا أن مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة في غياب الله عز وجل، من حلول فراق لم يكتسب؛ واحترام منية في حال الشباب أو ما أشبه ذلك، لقلت إنما حال بعيدة من كل آفة، وسليمة من كل داخلية. ولقد رأيت من اجتماع له هذا كله إلا أنه كان دهي فيمن كان

بحبه بشراسة الأخلاق، ودالة على الحبة، فكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخلق. لثقة لك واحد منهما بمحبة صاحبه، إلى أن دنت النوى بينهما ففترقا بالموت المرتب لهاذ العالم، وفي ذلك أقول:

كيف أذم النوى وأظلمها

وكل أخلاق من أحب نوى

قد كان يكفي هوى أضيق به فكيف إذ حل بي نوى وهوى

وروى عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله أنه قال لجلساته: من أنعم الناس عيشة؟ قالوا: أمير المؤمنين. فقال: وأين ما يلقي من قريش؟ قيل: فأنت. قال: أين ما ألقى من الخوارج والثغور؟ قيل فمن أيها الأمير. قال: رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لا يعرفنا ولا يعرفه.

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين، وجلا القلوب، واستمال الحواس. واستهوى النفوس، واستولى على الأهواء، واقتطع الأبواب، واختلس العقول، مستحسن يعدل إشفاق محب على محبوب ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الراققة المعنى لا سيما إن كان هوى يتكنم به. فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بحبه، وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالإعتذار، وتوجهه إلى غير وجهه، وتحليله في استنباط معنى يقيمه عند جلساته، لرأيت عجباً ولذة مخيفة لا تقاومها لذة، ورأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الغفل، وإن للمحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجز أهل الأذهان الذكية والأفكار القوية. ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت:

جوزت ما شئت على الغافل

إذا مزجت الحق بالباطل

علامة تبدو إلى العاقل

وفيهما فرق صحيح له

جازت على كل فتى جاهل

كالتبر إن تمزج به فضة

ميز بين المحض والحائل

وأن تصادف صائغاً ماهراً

وإني لأعلم فتى وجارية كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه، فكانا يضطجعان إذا حضرها أحد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان، وكأهما إنما يتمدان من الكلال. ولقد كان بلغ من تكافيهما في المودة أمراً عظيماً، إلى أن كان الفتى المحب ربما استطال عليها. وفي ذلك أقول:

طمت على السامع والقائل

ومن أعاجيب الزمان التي

وذلة المسؤل للسائل

رغبة مركوب إلى راكب

وصولة المقتول للقائل

وطول مأسور إلى أسر

خضوع ممول إلى أمل

ما إن سمعنا في الورى قبلها

تواضع المفعول للفاعل

هل هاهنا وجه تراه سوى

ولقد حدثني امرأة أثق بما أنه شاهدت فتى وجارية كان يجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد، قد اجتمعا في مكان على طرف، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه، فجرأها جرأ زائداً فقطع إمامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم، وكان على الجارية غلالة قصب خرائنية لها قيمة، فصرفت يدها وخرقيتها وأخرجت منها فضلة شد بها إمامه. وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه، وفرض لازم وشريعة مؤداة، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها.

خير: وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال، وعمها كان قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى، وأخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب وقائدين له في الوقعة المشهورة بالثغور، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف ابن سعيد العكي، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق، فعاجلته المنية وهو في أغص عيشه وأنضر سرورهما، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة ما ت وجعلته آخر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده حين موتها.
وإن للوصل المختلس الذي يخاتل به الرقباء ويتحفظ به من الحضر، مثل الضحك المستور، والنحنة، وجولان الأيدي، والضغط بالأجناب، والقرص باليد والرجل، لموقعاً من النفس شهياً. وفي ذلك أقول:

ليس للوصل المكين الجلي

كمسير في خلال النقي

إن للوصل الخفي محلاً

لذة أمرها بارتقاب

خير:

ولقد حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعاً منها فهم عقله بما. قال لي: فنتزها يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض أعمامي، فتمشينا في البساتين وأبعدنا عن المنازل وانسبنا على الأثمار. إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع. قال: فأمر عمي ببعض الأغصية فألقى علي وأمرها بالإكتنان معي، فظن بما شئت من التمكن على أعين المأل وهم لا يشعرون، وبالك من جمع كخلاء، واحتفال كانفراد. قال لي: فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبداً. ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان. ففي ذلك أقول شعراً، منه:

كحبيب رآه صب معنى

يضحك الروض والسحائب تبكي

خير: ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاحبة له هوى، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر، فكانت تقف له في ذلك الموضع، وكان فيه بعض البعد، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها. فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك. فأجابته: إنه ربما أحس من أمرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه، فصح الظن، فهذه علامة بيني وبينك فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب.
وربما استحل الوصال واتفقت القلوب حتى يقع التخلج في الوصال، فلا يلتفت إلي لاتم ولا يستتم من حافظ ولا يبالي بناقل، بل العذل حينئذ يغري. وفي صفة الوصل أقول شعراً، منه:

حصلت فيه كحصول الفراش

كم درت حول الحب حتى لقد

ومنه:

كما سرى نحو سنا النار عاش

تعشو إلى الوصل دواعي الهوى

ومنه:

كمثل تعليل الظلماء العطاش

عللني بالوصل من سيدي

ومنه:

فالحسن فيه مستزيد وباش

لا توقف العين على غاية

وأقول من قصيدة لي:

أم هل لعاني الحب من فادي

هل لقيل الحب من وادي

كمثل يوم مر في الوادي
يا عجباً للسباح الصعادي
تبصرني أَلحاظ عوادي
عن أعين الحاضر والبادي
يرحمني للسقم حسادي

أم هل لدهري عودة نحوها
ظلت فيه سابحاً صادياً
ضنيت يا مولاي وجداً فما
كيف اهتدي الوجد إلى غائب
مل مداوتي طبيبي فقد

الباب الحادي والعشرون

الهجر

ومن آفات الحب أيضاً الهجر، وهو على ضربين: فأولها هجر يوجهه تحفظ من رقيب حاضر؛ وإنه لأحلى من كل وصل، ولولا أن ظاهر اللفظ وحكم التسمية يوجب إدخاله في هذا الباب لرجعت به عنه ولأجلته عن تسطيره فيه. فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن محبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضاً معرضاً لئلا تلحق ظننه أو تسبق استرابته. وترى المحب أيضاً كذلك. ولكن طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالرغم، فتراه حينئذ منحرفاً كمقبيل، وساكناً كناطق، وناظراً إلى جهة نفسه في غيرها. والحاذق الفطن إذا كشف بوجهه عن باطن حديثهما علم أن الخافي غير البادي، وما جهر به غير نفس الخير، وأنه لمن المشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة. ولي آيات في شيء من هذا أوردتها. وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا، منها:

كما عير الحوت النعمة بالصدى

يلوم أبو العباس جهلاً بطبعه

ومنها:

ولا مكره إلا لأمر تعددا

وكم صاحب أكرمه غير طائع

كما نصبوا للطير بالحب مصيداً

وما كان ذاك البر إلا لغيره

وأقول من قصيدة محتوية على ضربين من الحكم وفنون الآداب الطبيعية:

وسراء أحبائي لمن أتحب

وسراء أحبائي لمن أنا مؤثر

ويترك صفو الشهد وهو محب

فقد يشرب الصاب الكريه لعله

أريد وإني فيه أشقى وأتعب

وأعدل في إجهاد نفسي في الذي

رأيت بغير الغوص في البحر يطلب

يهل اللؤلؤ المكنون والدر كله

إذا في سواها صح ما أنا أرغب

وأصرف نفسي عن وجوه طباعها

بما هو أدنى للصلاح وأقرب

كما نسخ الله الشرائع قبلنا

ونعت سجايبي الصحيح المذهب

وألقي سجايا كل خلق بمثلها

كما صار لون الماء لون إنائه

ومنها:

وفي الأصل لون الماء أبيض معجب

أقمت ذوي ودي مقام طبائعي

ومنها:

حياتي بها والموت منهن يرهب

وما أنا ممن تطيبه بشائثة

ولا يقتضي ما في ضميري التجنب

أزيد تفاراً عند ذلك باطناً

وفي ظاهري أهل وسهل ومرحب

فإني رأيت الحرب يعلو إشتعالها

ومبدؤها في أول الأمر ملعب

وللحياة الرقشاء وشي ولونها

عجيب وتحت الوشي سم مركب

وإن فرند السيف أعجب منظراً

وفيه إذا هز الحمام المذرب

وأجعل ذل النفس عزة أهلها

إذا هي نالت ما بها فيه مذهب

فقد يضع الإنسان في الترب وجهه

ليأتي غداً وهو المصون المقرب

فذل يسوق العز أجود للفتى

من العز يتلوه من الذل مركب

وكم مأكّل أربت عواقب غيه

ورب طوى بالخصب آت ومعقب

وما ذاق عز النفس من لا يذلها

ولا التذ طعم الروح من ليس ينصب

ورودك نهل الماء من بعد ظمأة

أذ من العل المكين وأعذب

ومنها:

وفي كل مخلوق تراه تفاضل

فرد طيباً إن لم يتح لك أطيب

ولا ترضى ورد الريق إلا ضرورة

إذا لم يكن في الأرض حاشاه مشرب

ولا تقربن ملح المياه فإنها

شجى والصدى بالحر أولى وأوجب

ومنها:

فخذ من جراها ما تيسر واقتنع

ولا تك مشغولاً بمن هو يغلب

فما لك شرط عندها لا ولا يد

ولا هي إن حصلت أم ولا أب

ومنها:

ولا تياسن مما ينال بحيلة

وإن بعدت فالأمر ينأى ويصعب

ولا تأمن الإظلام فالفجر طالع

ولا تلتبس بالضوء فالشمس تغرب

ومنها:

إذا طال ما يأتي عليه ويذهب

فعلت فماء المزن جم وينضب

وقام له منه غذاء مجرب

ألح فإن الماء يكدر في الصفا

وكثر ولا تفشل وقل كثير ما

فلو يتغذى المرء بالسم قاتنه

ثم هجر يوجه التذلل، وهو ألد من كثير الوصال، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحة عقده فحينئذ يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه، وذلك لئلا يصفو الدهر البتة، وليأسف المحب إن كان مفراط العشق عند ذلك لا لما حل، لكن مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره، أو خوفاً من آفة حادث ملل. ولقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف، على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود. فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمت كل بيت منه بقسم من أو قصيدة طرفه بن العبد المعلقة، وهي التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفتى الجعفري عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس، رحمهم الله، في المسجد الجامع بقرطبة، وهي:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد

يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغد

يقولون لا تهلك أسي وتجد

خاليا سفين بالعواصف من دد

يجور به الملاح طوراً ويهتدي

كما قسم الترب المفائل باليد

مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

تذكرت وداً للحبيب كأنه

وعهدي بعهد كان لي منه ثابت

وقفت به لا موقناً برجوعه

إلى أن أطل الناس عذلي وأكثروا

كأن فنون السخط ممن أحبه

كأن انقلاب الهجر والوصل مركب

فوقت رضي يتلوه وقت تسخط

ويبسم نحوي وهو غضبان معرض

ثم هجر يوجه العتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة. وموقفاً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا. وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أرقام في فكر ألد وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب، وبعد عنه كل بغيض، وغاب عنه كل واش، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلاً، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الإطالة للحديث، فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطوراً يدلي ببراءته، وطوراً يرد بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له، ولاحبيب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفي وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه، وذلك علامة الرضى. ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، ويقبل القول، وامتحت ذنوب النقل، وذهبت آثار السخط، ووقع الجواب بنعم وذنوبك مغفور، ولو كان فكيف ولا ذنب، وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا.

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدده الألسنة؛ ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لحيوبه، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء. وانبساط مدبري الدول، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له.

وحضرت مقام المعتدين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان

بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء. ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف، لا أجيء إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع، وفي الثانية أذل من الرداء، وألين من القطن، أبادر إلى أقصى غايات التذلل، وأغتتم فرصة الخضوع لو نجح، وأتحلل بلساني، وأغوص على دقائق المعاني بياني، وأفنن القول فنوناً، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي. والتجني بعض عوارض الهجران، وهو يقع في أول الحب وآخره، فهو في أوله علامة لصحة المحبة، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو. خير: واذكر في مثل هذا أي كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة في مقبرة باب عامر في أمة من الطلاب وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحم بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي رضي الله عنه، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي من أهل سبتة، وكان شاعراً مفلحاً وهو ينشد لنفسه في صفة متجن معهود أبياتاً له، منها:

**سريع إلى ظهر الطريق وإنه
يطول علينا أن نرفع وده**

**إلى نقض أسباب المودة يسرع
إذا كان في ترقيعه ينقطع**

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبي الحسين بن علي الفاس رحمه الله تعالى وهو يوم أيضاً مجلس ابن أبي يزيد، فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول: بل إلى عقد المودة إن شاء الله، هذا على جد أبي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه فقلت في ذلك:

**دع عنك نقض مودتي متعمداً
ولترجعن أردته أو لم ترد**

**واعقد حبال وصالنا يا ظالم
كرهاً لما قال الفقيه العالم**

ويقع فيه الهجر والعتاب. ولعمري إن فيه إذا كان قليلاً للذة، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود، وأمارة وبيبة المصدر، وعلامة سوء، وهي بجملة الأمر مطية الهجران، ورائد الصريمة، ونتيجة التجني، وعنوان الثقل، ورسول الانفصال، وداعية القلى، ومقدمة الصد، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق. وفي ذلك أقول:

**لعلك بعد عتبك أن تجودا
فكم يوم رأينا فيه صحواً**

**بما منه عتبت وأن تزيدا
وأسمعنا بآخره الرعودا**

**وعدت الصحو بعد كما علمنا
وأنت كذاك نرجو أن تعودا**

وكان سبب قولي هذه الآيات عتاب وقع في يوم هذه صفته من أيام الربيع فقلتها في ذلك الوقت، وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فغابا في سفر ثم قدما، وقد أصابني رمد فتأخرا عن عيادتي، فكتبت إليهما، والمخاطبة للأكبر منهما، شعراً منه:

**وكنت أعدد أيضاً على
ولكن إذا الدجن عطى ذكا**

**أخيك بمؤلمة السامع
ء فما الظن بالقمر الطالع**

ثم هجر يوجهه الوشاة، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من ديب عقاربهم، وربما كان سبباً للمقاطعة البتة. ثم هجر الملل، والملل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان، وأخرى لمن دهي به ألا يصفو له صديق، ولا يصح له إحاء، ولا يثبت على عهد، ولا يصبر على إلف، ولا تطول مساعدهته بحب، ولا يعتد منه ود ولا بغض. وأولى الأمور بالناس ألا يغروه منهم وأن يفروا عن صحبتهم ولقائهم. فلن يظفروا منه بطائل، ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجني والتظني. والتعرض للمقاطعة. وأما من تزيا باسم الحب وهو ملول فليس منهم، وحقه ألا يتجرع مذاقه، وينفي عن أهل هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم. وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبي عامر محمد بن عامر رحمه الله، فلو وصف لي واصف بعض ما علمته منه لما صدقته وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه. فلاتتق ملول ولا

تشغل به نفسك، ولا تعنها بالرجاء في وفاته. فإن دفعت إلى محبته ضرورة فعده ابن ساعته، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونه، وقابله بما يشاكله. ولقد كان أبو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاعتنام والهلم ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو حال دونه ذلك شوك القتاد، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت الحبة نزاراً، وذلك الأنس شروداً، والقلق إليها قلقاً منها، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق الذكاء والنبل والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض. وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الأوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة إلى درب المتصل بقصر الزاهرة، وفي هذا درب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا، لا لشيء إلا للنظر منه. ولقد مات من محبته جوار كن علقن أو هامهن به، ورثين له فخامن مما أملنه منه، فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة.

وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء، عهدي بها لا تستر بمحبته حيثما جلست، ولا تحف دموعها، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيال صاحب الفتیان. ولقد كان رحمه الله يحبرني عن نفسه أنه يمل اسمه فضلاً عن غير ذلك. وأما إهوانه فإنه تبدل بهم في عمره على قصره مراراً، وكان لا يثبت على زي واحد كأبي براقش، حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك.

فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أي وجه كان ألا يستفرغ عامة جهده في محبته، وأن يقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه؛ فإذا لاح له مخايل الملل قاطعة أياماً حتى ينشط باله، ويبعد به عنه، ثم يعاوده، فرمما دامت المودة مع هذا. وفي ذلك أقول:

ليس الملول بعده

لا ترجون ملولاً

عارية مسترده

ود الملول فدعه

ومن الهجر ضرب يكون متوليه الحب، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره، أو لتقيل يلازمه، فيرى الموت ويتجرع غصص الأسي، والعض على نقيف الخنظل أهون من رؤية مايكره، فينقطع وكبده تنقطع، وفي ذلك أقول:

يا عجباً للعاشق الهاجر

هجرت من أهواه لا عن قلى

إلى محبا الرشأ الغادر

لكن عيني لم تطق نظرة

يباح للوارد والصادر

فالموت أحلى مطمعاً من هوى

فاعجب لصب جزع صابر

وفي الفؤاد النار مذكية

تقية المأسور للأسر

وقد أباح الله في دينه

حتى ترى المؤمن كالكافر

وقد أحل الكفر خوف الردى

خير:

ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه أني أعرف من هام قلبه بمتناه عنه نافر منه، فقاسى الوجد زمناً طويلاً، ثم سنحت له الأيام بساحة عجيبة من الوصل أشرف بما على بلوغ أمله، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء عاد الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل. فقلت في ذلك:

مقرونة في البعد بالمشترى

كانت إلى دهري لي حاجة

كانت من القرب على محجر

فساقها باللطف حتى إذا

أبعدها عني فعادت كأن

لم تبد للعين ولم تظهر

وقلت:

دنا أُملي حتى مددت لأخذه

يداً فأنثني نحو المجرة راحلاً

فأصبحت لا أرجو وقد كنت موقناً

وأضحى مع الشعري وقد كان حاصلاً

وقد كنت محسوداً فأصبحت حاسداً

وقد كنت مأمولاً فأصبحت أملاً

كذا الدهر في كراته وانتقاله

فلا يأمن الدهر من كان عاقلاً

ثم هجر القلى، وهنا ضلت الأساطير ونفدت الخيل وعظم البلاء؛ وهو الذي خلى العقول ذواهل، فمن دهى بهذه الداهية فليتصد محبوب محبوبه، وليتعهد ما يعرف أنه يستحسنه. ويجب أن يجتنب ما يدري أنه يكرهه، فرمما عطفه ذلك عليه إن كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب. فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان، ويسعى في نيل رغبته على أي وجه أمكنه. ولقد رأيت من هذه صفته، وفي ذلك أقول قطعة أولها:

دهيت بمن لو أدفع الموت دونه

لقال إذا يا ليتني في المقابر

ومنها:

ولا ذنب لي إذ صرت أحدو ركائبي

إلى الورد والذنيا تسيء مصادري

وماذا على الشمس المنيرة بالضحي

إذا قصرت عنها ضعاف البصائر

وأقول:

ما أقبح الهجر بعد وصل

وأحسن الوصل بعد هجر

كالو فر تحويه بعد فقر

والفقر يأتيك بعد وفر

وأقول:

معهود أخلاقك قسمان

والدهر فيك اليوم صنفان

فإنك النعمان فيما مضى

وكان للنعمان يومان

يوم نعيم فيه سعد الورى

ويوم بأساه وعدوان

فيوم نعماك لغيري ويو

مى منك ذو بؤس وهجران

أليس حبي لك مساهلاً

لأن تجازيه بإحسان

وأقول قطعة منها:

يا من جميع الحسن منتظم

فيه كنظم الدر في العقد

ما بال حتفي منك يطرقني

قصداً ووجهك طالع السعد

وأقول قصيدة أولها:

أساعة توديعك أم ساعة الحشر
وهجرك تعذيب الموحد ينقضي
وليلة بيني منك أم ليلة القشر
ويرجو التلاقي أم عذاب ذوي الكفر

ومنها:

سقى الله أياماً مضت وليالياً
فأوراقه الأيام حسناً وبهجة
لهونا بها في غمرة وتآلف
فأعقبنا منه زمان كأنه
تحاكي لنا النيلوفر الغض في النشر
وأوسطه الليل المقصر للعمر
تمر فلا ندري وتأتي فلا ندري
ولا شك حسن العقد أعقب بالغدر

ومنها:

فلا تيأسي يا نفس على زماننا
كما صرف الرحمن ملك أمية
يعود بوجه مقبل غير مدبر
إليهم ولوذي بالتجمل والصبر

وفي هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد أبا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله.

فأقول:

أليس يحيط الروح فينا بكل ما
كذا الدهر جسم وهو في الدهر روحه
دنا وتناهى وهو في حجب الصدر
محيط بما فيه وإن شئت فاستقر

ومنها:

إتاوتها تهدي إليه ومنه
كذا كل نهر في البلاد وأن طمت
تقبلها منهم يقاوم بالشكر
غزارته ينصب في لجج البحر

الباب الثاني والعشرون

الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره الوفاء، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر، يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات. وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعال كل أمرئ تنبى بعنصره
والعين تغنيك عن أن تطلب الأثرا

ومنها:

وهل ترى قط دفلى أنبتت عنباً
أو تذخر النحل في أوكارها الصبرا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له، وهذا فرض لازم وحق واجب على الحب والمحبوب، لا يجوز عنه إلا خبيث المختد لا خلاق له ولا خير عنده. ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبع وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع بعد الطبع، لزدت في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله، ولكننا إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط. وهذا أمر كان يطول جداً إذ الكلام فيه يتفتن كثيراً.

خير: ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأناً قصة رأيتها عياناً، وهو أبي أعرف من رضي بقطيعة محبوبه وأعز الناس عليه؛ ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة في جنب طيه لسر أودعه، وألزوم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه أبداً ولا يكون بينهما خير أو يفضح إليه ذلك السر. على أن صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى وهو على كتمانته والثاني على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام.

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر، وهي للمحب دون المحبوب، وليس للمحبيب هاهنا طريق ولا يلزمه ذلك، وهي خطة لا يطبقها إلا جلد قوي واسع الصدر حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر حصيف العقل ماجد الخلق سالم النية. ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة، ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جداً وتفوقها بعداً. وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله، والكف عن سيء المعارضة بالفعل والقول، والتأني في جر حبل الصحبة ما أمكن، ورجيت الألفة، وطمع في الرجعة، ولاحت للعودة أدنى مخيلة، وشيئت منها أقل بارقة، أو توجس منها أيسر علامة. فإذا وقع اليأس واستحكمت الغيظ حينئذ والسلامة من غرك والأمن من ضرك والنجاة من أذاك، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع، فرعى الأذمة حق وكيد على أهل العقول، والحنين إلى ما مضى وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء وهذه الصفة حسنة جداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أي حال كانت.

خير: ولعهدي برجل من صفوة إخواني قد تعلق بجارية فتأكد الود بينهما، ثم غدرت بعهدته ونقضت وده وشاع خبرهما، فوجد لذلك وجداً شديداً.

خير: وكان لي مرة صديق ففسدت نيته بعد وكيد مودة لا يكفر بمثلها، وكان علم كل واحد منا سر صاحبه، وسقطت المؤونة، فلما تغير علي أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه، ثم اتصل به أن قوله في قد بلغني، فجزع لذلك وخشي أن أقارضه على قببح فعلته. وبلغني ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه وأعمله أي لا أقارضه.

خير: ومما يدخل في هذا الدرج، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا، وذلك أن محمد بن وليد بن مكسر الكاتب كان متصلاً بي ومنقطعاً إلى أيام وزارة أبي رحمة الله عليه، فلما وقع بقرطبة ما وقع وتغيرت أحوال خرج إلى بعض النواحي فاتصل بصاحبها فعرض جاهه وحدثت له وجاهة وحال حسنة. فحللت أنا تلك الناحية في بعض رحلي فلم يوفني حقي بل ثقل عليه مكاني وأساء معاملتي وصحبي، وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد واشتغل عنها لما ليس في مثله شغل. فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه، فجأوني مستعباً على ذلك. فما كلفته حاجة بعدها. ومما لي في هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبياتاً قلتها، منها:

ولكن كتمك ما أفشاه مغشيه

وليس يحمد كتمان لمكتتم

قل الوجود له أوضن معطيه

كالجود بالوفر أسنى ما يكون إذا

ثم مرتبة الثالثة وهي الوفاء مع اليأس البات، وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون. وإن الوفاء في هذه الحالة لأجل وأحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء.

وخير:

ولقد حدثني امرأة أثق بها أنها رأت في دار محمد بن أحمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من ولد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه جارية رائعة جميلة كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته، فأبت أن ترضى، بالرجال بعده وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل. وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة،

وفاء منها لمن قد ذروراته الأرض والتأمت عليه الصفائح ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع حواريه ويخرجها مما هي فيه فأبت، فصرها غير مرة وأوقع بها الأدب، فصبرت على ذلك كله. فأقامت على امتناعها. وإن هذا من الوفاء غريب جداً. وأعلم أن الوفاء على الخب أو جلب منه على الخبوب وشرطه له الزم، لأن الخب هو البادي باللصوق والتعرض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة، ولا أول في عدد طلاب الأصفياء، والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه؟ ومن أجزره على استحلاب المقة وإن لم ينو ختمها بالوفاء لمن أرادها عليها؟ والمحبوب إنما هو محبوب إليه ومقصود نحوه ومخير في القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء، وإن أبي فغير مستحق للذم. وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه والتأني لكل ما يستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء فحفظ نفسه أراد الطالب، وفي سروره سعى وله احتطب. والحب يدعوه ويحدوه على ذلك شاء أو أبي، وإنما يحمدهم الوفاء ممن يقدر على تركه. وللوفاء شروط على المحبين لازمة. فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته، وتستوي علانيته وسريته، ويطوي شره وينشر خيره، ويغطي على عيوبه ويحسن أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه، بما ينفر منه، وألا يكون طلعة ثوراً ولا ملة طروقاً. وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الإستشاطه عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته. وبحسبه منه حينئذ كتمان خيره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به، وإن كانت الثالثة وهي السلامة مما يلقي بالحملة فليقتنع بما وجد، وليأخذ من الأمر ما استدف ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقاً. وإنما له ما سنح بحده أو ما حان بكده، وأعلم أنه لا يستبين قبح الفعل لأهله، ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه ولا أقول قولي هذا ممتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل: "وأما بنعمة ربك فحدث".

لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بقلية واحدة، ووهبي من المحافظة لمن يتدمم مني ولو بمحادثته ساعة خطأ؟ أنا له شاكر وحامد ومنه مستمد ومستزید، وما شيء أثقل علي من الغدر، ولعمري ما سمعت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته وكثرت إلى ذنوبه، ولقد ذهبي من هذا غير قليل فما جزيت على السوء إلا بالحسني، والحمد لله على ذلك كثيراً، وبالوفاء أفتخر في كلمة طويلة ذكرت فيها ما مضى من النكبات، ودهمنا من الخلل والترحال والتحول في الآفاق. أولها:

ولي فولى جميل الصبر يتبعه
وصرح الدمع ما تخفيه أضلعه
جسم ملول وقلب آلف فإذا
حل الفراق عليه فهو موجهه
لم تستقر به دار ولا وطن
ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من رهو السحاب فما
تزال ريح إلى الآفاق تدفعه
كأنما هو توحيد تضيق به
نفس الكفور فتأبى حين تودعه
أو كوكب قاطع في الأفق منتقل
فالسير يغربه حيناً ويطلعه
أظنه لو جزته أو تساعده
ألقت عليه انهمال الدمع يتبعه

وبالوفاء أيضاً أفتخر في قصيدة لي طويلة أوردتها. وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب، فكان سبب قولي لها أن قوماً من مخالفني شرقوا بي فأساءوا العتب في وجهي وقذفوني بأني أعضد الباطل بحجتي، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله. وحسداً لي. فقلت، وحاطبت بقصيدتي بعض إخواني وكان ذا فهم، منها:

وخذني عصا موسى وهات جميعهم
ولو أنهم حيات ضال نضائض

ومنها:

وقد بتمني الليث والليث رابض

يريجون في عيني عجائب جمّة

ومنها:

يرجى محالا في الإمام الروافض

ويرجون مالا يبلغون كمثل ما

ومنها:

لما أثرت فيها العيون المرائض

ولو جلدي في كل قلب ومهجة

كما أبت الفعل الحروف الخوافض

أبت عن دنيء الوصف ضربة لازب

ومنها:

كما تسلك الجسم العروق النوابض

ورأبي له في كل ما غاب مسلك

ويستر عنهم للقبول المرابض

يبين مدب النمل في غير مشكل

الباب الثالث والعشرون

الغدر

وكما أن الوفاء من سرى النعوت ونبل الصفات، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروها، وإنما يسمى غدرًا من البادي. وأما المقارض بالغدر على مثله، وإن استوى معه في حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو معيَّباً بذلك، والله عز وجل يقول: "جزاء سيئة سيئة مثلها". وقد علمنا أن الثانية ليست بسيئة ولكن لما جانست الأولى في الشبه أوقع عليها مثل اسمها، وسيأتي هذا مفسراً في باب السلو إن شاء الله. ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم. وفي ذلك أقول:

وعظم وفاء من يهوى يقل

قليل وفاء من يهوى يجل

يجيء به الشجاع المستقل

فنادرة الجبان أجل مما

ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه. وفيه أقول:

وثقت به جهلاً فضرب بيننا

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبي

وأبعد عني كل ما كان ممكنا

وحل عرى ودي وأثبت وده

وأصبحت ضيفاً بعد ما كان ضيفنا

فصرت شهيداً بعد ما كنت مشهداً

خبر: ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال: أذكر في الصبي جارية في بعض السدد يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وهواه ويتراسلن، وكان السفير بينهما والرسول بكتبتهما فتى من أتراه كان يصل إليها، فلما عرضت الجارية للبيع أراد الذي كان يحبها ابتاعها، فبدر الذي كان رسولاً فاشتراها. فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها، فأتى إليها وجعل يفتش الدرج، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخاً بالغالية مصوناً مكرماً، فغضب وقال: من أين هذا يا فلسفة؟ قالت: أنت سقته إلي. فقال: لعله محدث بعد ذاك الحين. فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف. قال فكأنما ألقمته حجراً، فسقط في يديه وسكت.

الباب الرابع والعشرون

البين

وقد علمنا أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق، ولكل دان من تناء، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق، ولو سألت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً. وسمع بعض الحماء قائلاً يقول:
الفراق أخو الموت، فقال: بل الموت أخو الفراق.
والبين ينقسم أقساماً: فأولها مدة يوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب، وإنه لشجي في القلب، وغصة في الحلق لا تبرا إلا بالرجعة، وأنا أعلم من كان يغيب من يجب عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الملح والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه.
ثم بين منع من اللقاء، وتحضير على المحبوب من أن يراه محبه، فهذا ولو كان من تحبه ومعك في دار واحدة فهو بين: لأنه بائن عنك. وإن هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل، ولقد جربناه فكان مرأ، وفي ذلك أقول:

ولكن من في الدار عني مغيب

أرى دارها في كل حين وساعة

على وصلهم مني رقيب مراقب

وهل نافعني قرب الديار وأهلها

وأعلم أن الصين أدنى وأقرب

فيالك جار الجنب أسمع حسه

وليس إليه من سبيل يسبب

كصاد يرى ماء الطوى بعينه

وما دونه إلا الصفيح المنصب

كذلك من في الحد عنك مغيب

وأقول من قصيدة مطولة:

وتصقب دار قد طوى أهلها البعد

متة تستقي نفس أضرب بها الوجد

وأقرب من هند لطالها الهند

وعهدي بهند وهي جارة بيتنا

كما يمسك الضمآن أن يدنو الورد

بلى إن في قرب الديار لراحة

ثم بين يتعمده المحب بعداً عن قول الوشاة، وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء، وذريعة إلى أن يفشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ.
ثم بين يولده المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، وعذره مقبول أو مطرح على قدر الجافز له إلى الرحيل.
خير: ولعهدي بصديق لي داره المرية، فعنت له حوائج إلى شاطبة فقصدها، وكان نازلاً بها في منزلي مدة إقامته بها، وكان له بالمرية علاقة هي أكبر همه وأدهى غمه، كان يؤمل بتها وفراغ أسبابه وأن يوشك الرجعة ويسرع الأوبة، فلم يكن إلا حين لطيف بعد احتلاله عندي حتى جيش الموفق أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرب العساكر ونايذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب، وتحوميت السبل واحترس البحر بالأساطيل، فتضاعف كربيه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة، وكاد يطفأ أسفاً، وصار لا يأنس بغير الوحدة، ولا يلجأ إلا إلى الزفير والوجوم. ولعمري لقد كان ممن لم أقدر قط فيه أن قلبه يدعن للود، ولا شراسة طبعه وتجيح إلى الهوى.

وأذكر أبي دخلت قرطبة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضممني الطريق مع رجل من الكتاب قد رحل لأمر مهم وتخلف سكن له، فكان يرتض لذلك. وإني لأعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الأرض مذاهب واسعة ومناديع رجة ووجوه متصرف كثيرة، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يجب، وفي ذلك أقول شعراً، منه:

والسيف غفل أو يبين قرابه

لك في البلاد منادح معلومة

ثم بين رحيل وتباعد ديار، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خير، ولا يحدث تلاق. وهو الخطب الموجه، والهـم المـفـطـع، والحادث الأشنع، والداء الدوي. وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي والمحـبـوب، وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيراً. وفي ذلك أقول قصيدة، منها:

ستوردني لا شك منهل مصرعي

كجارع سم في رحيق مشعشع

وأولعها بالنفس من كل موع

أعنت على عثمان أهل التشيع

وذي علة أعيـا الطيب علاجها

رضيت بأن أضحي قنتيل وداده

فما لليالي ما أقل حياءها

كأن زماني عبشمي يخالني

وأقول من قصيدة:

لمجتهد النساك من أوليائه

توقع نيران الغضي هيمنه

فاعجب بأعراض تبيين ولا شخص

محيط بما فيه وأنت له فض

كما غنيت شمس السماء عن الحلـى

وهجرانه دفني وفقدانه نعبي

تذبه يد خشناء.....

أطنك تمثال الجنان أباحه

وأقول من قصيدة:

لأبرد باللقيا غليلاً من الهوى

وأقول شعراً منه:

خفيت عن الأبصار والوجد ظاهر

غدا الفلك الدوار حلقة خاتم

وأقول من قصيدة:

غنيت عن التشبيه حسناً وبهجة

عجبت لنفسـي بعده كيف لم تمت

وللجسد الغض المنعم كيف لم

وإن للأوبة من البين الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه، لروعة تبلغ مالا حد وراعه وربما قتلت. في ذلك أقول:

كسرور المفيق حانت وفاته

من دنا منه بالفراق مماته

ت وتودي بأهله هجماته

ن فزار الحمام وهو حياته

للتلاقي بعد الفراق سرور

فرحة تبهج النفوس وتحـي

ربما قد تكون داهية المو

كم رأينا من عب في الماء عطشا

وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زمناً ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه، حتى دعتـه نوى ثانية فكاد أن يهلك. وفي ذلك أقول:

زمان النوى بالقرب عدت إلى البعد

وعاودكم بعدي وعاودني وجدي

رأى البرق في داج من الليل مسود

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى

فلم يك إلا كرة الطرف قربكم

كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه

وبعض الأراجي لا تفيديو ولا تجدي

فأخلفه منه رجاء دوامه

وفي الأوبة بعد الفراق أقول قطعة، منها:

كما سخنت أيام يطويكم البعد

لقد قرت العينان بالقرب منكم

ولله فيما قد قضى الشكر والحمد

فله فيما قد مضى الصبر والرضى

خير: ولقد نعي إلى بعض من كنت أحب من بلدة نازحة، فقمتم فاراً بنفسي نحو المقابر وجعلت أمشي بينها وأقول:

وأن البطن منها صار ظهراً

وددت بأن ظهر الأرض بطن

أتى فأتار في الأكباد جمراً

وأنى مت قبل ورود خطب

وأن ضلوع صدري كن قبراً

وأن دمي لمن قد بان غسل

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت:

والقلب في سبع طباق شداد

بشرى أتت واليأس مستحكم

كان فؤادي لابساً للحداد

كست فؤادي خضرة بعدما

يجلي بلون الشمس لون السواد

جلي سواد الغم عني كما

صدق وفاء بقديم الوداد

هذا وما أمل توصلاً سوى

لكن لظل بارد ذي امتداد

فالمرن قد تطلب لا للحيا

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع، أعني رحيل المحب أو رحيل الحبيب. وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل ذي بصيرة، وتسكب كل عين جمود، ويظهر مكنون الجوى. وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه، كالعتاب في باب المحر. ولعمري لو أن ظريفاً يموت في ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال، وتبدل السرور بالحزن. وإنما ساعة ترق القلوب القاسية، وتلين الأفئدة الغلاظ. وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لها تكة حجاب القلب، وموصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركة الوجه في ضد هذا.

والإشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين، أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة، والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة، وربما لعله كان لا يمكن قبل ذلك البتة مع تجاور الحال وإمكان التلاقي، ولهذا تمني بعض الشعراء البين ومدحوا يوم النوى، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأي، فما يفني سرور ساعة بجزن ساعات، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً، وهذا سوء من النظر ومعوج من القياس، وإنما أثنيت على النوى في شعري تمناً لرجوع يومها، فيكون في كل يوم لقاء ووداع. على أن تحمل مضض هذا الاسم الكريه، وذلك عند ما يمضي من الأيام التي لا التقاء فيها، يرغب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه في كل يوم. وفي الصنف الأول من الوداع أقول شعراً، منه:

كما تتوب عن النيران أنفاسي

تتوب عن بهجة الأنوار بهجته

وفي الصنف الثاني من الوداع أقول شعراً، منه:

والوجه تم فلم ينقص ولم يزد

وجه تخر له الأنوار ساجدة

وبارد ناعم والشمس في الأسد

دفع وشمس الضحى بالجدي نازلة

ومنه:

يوم الفراق لعمرى لست أكرهه أصلان وإن شئت شمل الروح عن جسدي
ففيه عانقت من أهوى بلا جزع وكان من قبله إن سبل لم يجد
أليس من عجب دمعي وعبرتها يوم الوصال ليوم البين ذو حسد

وهل هجس في الأفكار أو قام في الظنون أشنع وأوجعمن هجر عتاب وقع بين محبين، ثم فجأماً النوى قبل حلول الصلح والخلال عقدة
المجران، فقاما إلى الوداع وقد نسي العتاب، وجاء ما طم عن القوى وأطار الكرى وفيه أقول شعراً، منه:

وقد سقط العتب المقدم وامحى وجاءت جيوش البين تجري وتسرع
وقد ذعر البين الصدود فراعته فولى فما يدري له اليوم موضع
كذئب خلا بالصييد حتى أضله هزبر له من جانب الغيل مطلع
لئن سرنى في طرده الهجر أننى لإبعاده عني الحبيب لموجع
ولا بد عند الموت من بعض راحة وفي غيرها الموت الوحى المصرع

وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير
اللون كاسف البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله.

وإن للبين في إظهار السرائر المطوية عملاً عجيباً، ولقد رأيت من كان حبه مكتوماً وبما يجد فيه مستتراً حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون
وظهر الخفي. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

بذلت من الود ما كان قبل منعت وأعطيتيه جزافاً
وما لي به حاجة عند ذلك ولو وجدت قبل بلغت الشفافا
وما ينفع الطب عند الحمام وينفع قبل الردى من تلافيا

وأقول:

الآن إذ حل الفراق جدت لي بخفى حب كنت تبدي بخله
فزدتني في حسرتي أضعافها ويحي فهلا كان هذا قبله

ولقد أذكرني هذا أي حظيت في بعض الأزمان بمودة رجل من وزراء السلطان أيام جاهه فأظهر بعض الإمتسك، فتركته حتى ذهبت أيامه
وانقضت دولته، فأبدى لي من المودة والأخوة غير قليل، فقلت:

بذلت لي الإعراض والدهر مقبل وتبذل لي الإقبال والدهر معرض
وتبسطني إذ ليس ينفع بسطكم فهلا أبحت البسط إذ كنت تقبض

ثم بين الموت وهو الفتور، وهوى الذي لا يرجى له إياب، وهو المصيبة الحالة وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، وهو الويل، وهو المغطى
على ظلمة الليل، وهو قاطع كل رجاء، ومأحي كل طمع والمؤيس من اللقاء. وهنا حادث الألسن؛ وانجذام حبل العلاج، فلا حيلة إلا الصبر

طوعاً أو كرهاً. وهو أجل ما يتبلى به المحبون، فما لمن دعى به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل، فهي القرحة التي لا تنكي، والوجع الذي لا يفنى، وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من اعتمده، وفيه أقول:

فموجي لم يفت

كل بين واقع

لم يفت من لم يمت

لا تعجل قنطاً

يأس عنه قد ثبت

والذي قد مات فال

وقد رأينا من عرض له هذا كثيراً. وعني أخبرك أي أحد من دهي بهذه الفادحة وتعذلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بما لأقدار واحترمتها الليالي ومر النهر وصارت ثالثة التراب والأحجار. وسيء حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أمت بعدها سبعة أشهر لا تجرد عن ثيابي ولا تفتري لي دمة على جمود عيني وقلة إسعادها. وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن. ولو قبل فداء لفتيتها بكل ما أملك من تالد وطارف وبعض أعضاء جسمي العريضة علي مسارعاً طائعاً وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها. ولقد عفى حي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده. ومما قلت فيها.

وسائر ربات الحجال نجوم

مهذبة ببيضاء كالشمس إن بدت

فبعد وقوع ظل وهو يحوم

إطار هواها القلب عن مستقره

ومن مرائي فيها قصيدة منها:

على عقد الألباب هن نوافث

كأنني لم أنسى بالفاظك التي

لإفراط ما حكمت فيهن عابث

ولم أتحمك في الأمانى كأنني

ومنها:

ويقسمن في هجري وهن حوائث

ويبدین إعراضاً وهن أوالف

وأقول أيضاً في قصيدة أحاطب فيها ابن عمي أبو المغيرة عبد الوهاب أحمد ابن عبد الرحمن بن حزم بن غالب وأقرضه، فأقول:

أمرت عليها بالبلبي الملوان

قفا فاسألا الأطلال أين قطينها

كأن المغاني في الخفاء معاني

على دارسات مقفات عواطل

واختلف الناس في أي الأمرين أشد: البين أم المهجر؟ وكلاهما مرتقى صعب ومرت أحمر وبليّة سوداء وسنة شهباء. وكل يستبشع من هذين ما ضاد طبعه، فأما ذو النفس الأبية، الألوف الحنّانة، الثابتة على العهد، فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين، لأنه أتى قصداً، وتعمدته النوائب عمداً، فلا يجد شيئاً يسلى نفسه ولا يصرف فكرته في معنى من المعاني إلا وجد باعثاً على صبايته؛ ومحرراً لأشجانته، وعليه لا له، وحجة لوجوده. وخاضاً على البكاء على إلفه. وأما المهجر فهو داعية السلو، ورائد الإقلاع. وأما ذو النفس التواقفة الكثيرة التزوع والتطلع، القلوق العزوف، فالمهجر داؤه وجالب حتفه. والبين له مسلاة ومنساة.

وأما أنا فالمرتدي أسهل من الفراق، وما المهجر إلا جالب للكمد فقط. ويوشك إن دام أن يحدث إضراراً، وفي ذلك أقول:

يكون وترغب أن ترغبه

وقالوا ارتحل فلعل السلو

فقلت الردي لي قبل السلو

ومن يشرب السم عن تجربته

وأقول:

سبي مهجي هواه

وأودت بها نواه

كأن الغرام ضيف

وروحى غدا قراه

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق، وهذا وإن لم يكن عندي من المذاهب المرضية، فهو حجة قاطعة. على أن البين أصعب من الهجر، وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين، ولم أجد أحداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر، إنما يأخذ الناس أبداً الأسهل ويتكلفون الأهون. وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها ولعل ما تخوفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه، وهو على غير يقين مما يتعجل، بحكيم، وفيه أقول شعراً، منه:

ليس الصب للصبابة بيناً

لسي من جانب الأحبة منا

كغي العيش عيش فقير

خوف نقره نقره قداً ما

وأذكر لابن عمي أبي المغيرة هذا المعنى، من أن البين أصعب من الصد، أبياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها، وهي:

أجزعت أن أزف الرحيل

وولعت أن نص الذميل

كلامصابك فادح

وأجل فراقهم جليل

كذب الألى زعموا بأن الصد

مرتعه وبيل

لم يعرفوا كنه الغلي

ل وقد تحملت الحمول

أما الفراق فإنه

للموت إن أهوى دليل

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة، أولها:

لا مثل يومك ضحوة التنعيم

في منظر حسن وفي تنعيم

قد كان ذاك اليوم ندره عاقر

وصواب خاطئة وولد عقيم

أيام برق الوصل ليس بخلب

عندي ولا روض الهوى بهشيم

من كل غانية تقول نديها

سيري أمامك والإزار أقيمي

كل يجاذبها فحمة خدها

خجل من التأخير والتقديم

ما بي سوى تلك العيون وليس في

برئي سواها في الورى بزعيم

مثل الأفاعي ليس في شيء سوى

أجسادها إباء لدغ سليم

والبين أبكى الشعراء على المعاهد فأدروا على الرسوم الدموع، وسقوا الديار ماء الشوق، وتذكر ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتخبوا، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا.

ولقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث، في الجانب الغربي منها وقد احمت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وقيافي موحشة بعد الأوس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ومأوى للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحوش، بعد رجال كالليوث، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية. تبتد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا، فكأن تلك الحارب المنمقة. والمقاصير المزينة، التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويحلو الهموم حسن منظرها، حين شملها الخراب، وعمها الهدم، كأفواه السباع فاعرة، تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتخترك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها. وتزهذ في طلبها بعد أن طالما زهدت في تركها، وتذكرت أيامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم، ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى وفي الآثار النائية والنواحي البعيدة وقد فرقتهن يد الجلاء، ومزقتهن أكف النوى، وخيل إلى بصرى بقاء تلك النصبية بعد ما علمته من حسننها وغضارتها والمراتب المحكمة التي نشأت فيما لديها، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقتها بأهلها، وأوهمت سمعي صوت الصدى والهام عليها، بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها، وكان ليها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمارها، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش، فأبكى عيني، وأوجع قلبي، وقرع صفاة كبدي، وزاد في بلاء لي، فقلت شعراً منه:

وإن ساعنا فيها فقد طالما سرا

لئن كان أظلمانا فقد طالما سقى

والبين يولد الحنين والاهتياج والتذكر. وفي ذلك أقول:

يبين بينهم عني فقد وقفا

ليت الغراب يعيد اليوم لي فعسى

وقد تألى بألا ينقضي فوفى

أقول والليل قد أرخى أجلته

يمضي ولا هو للتغوير منصرفاً

وللنجم قد حار في أفق السماء فما

أو راقباً موعداً أو عاشقاً دنفاً

تخاله مخطئاً أو خائفاً وجلاً

الباب الخامس والعشرون

القنوع

ولا بد للمحب، إذا حرم الوصل، من القنوع بما يجد! وإن في ذلك لمتعللاً للنفس، وشغلاً للرجا، وتجديداً للمنى، وبعض الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن.

فأولها الزيارة، وإلها لأمل من الآمال، ومن سرى ما يسبح في الدهر مع ما تبدى من الحفر والحياء، لما يعلمه كل واحد منها مما نفس صاحبه. وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحب محبوبه، وهذا الوجه واسع. والوجه الثاني أن يزور المحبوب محبه. ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر. وفي ذلك أقول:

سأرضى بلحظ العين إن لم يكن وصل

فإن تتأ عني بالوصل فأبني

وما كنت أرضى ضعف ذامتك لي قبل

فحسبي أن ألقاك في اليوم مرة

كذا همه الوالي تكون رفيعة ويرضى خلاص النفس إن وقع العزل

وأما رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال، وإن كنت أنا أقول في قصيدة لي:

فها أنا ذا أخفي وأقنع راضياً برجع سلام إن تيسر في الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مرتبة إلى ما هو أدنى منها. وإنما يتفاضل المخلوقات في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها. وإنني لأعلم من كان يقول محبوبه: عدني واكذب، فتوَعَّأ بأن يسلى نفسه في وعده وإن كان غير صادق. فقلت في ذلك:

إن كان وصلك ليس فيه مطمع والقرت ممنوع فعدني واكذب

فعسى التعلل بالتقائك ممسك

فلقد يسلى المجديين إذا رأوا في الأفق يلغ ضوء برق خلب

وما يدخل في هذا الباب شيء رأيتُه ورآه غيري معي، أن رجلاً من إخواني جرحه من كان يحبه بمدية، فلقد رأيتُه وهو يقبل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرة. فقلت في ذلك:

يقولون شجك من همت فيه فقلت لعمرى ما شجى

ولكن أحس دمي قربه فطار إليه ولم ينثن

قافيا تلى ظلماً محسناً فديتك من ظالم محسن

ومن القنوع أن يسر الإنسان ويرضى ببعض آيات محبوبه، وإن له من النفس لموقعاً حسناً وإن لم يكن فيه إلا ما نص الله تعالى علينا، ومن ارتداد يعقوب بصيراً حين شم قميص يوسف عليهما السلام، وفي ذلك أقول:

لما منعت القرب من سيدي ولج في هجري ولم ينصف

صرت بإبصاري أثوابه أو بعض ما قد مسه أكتفي

كذاك يعقوب نبي الهدى إذ شفه الحزن على يوسف

شم قميصاً جاء من عنده وكان مكفوفاً فمنه شفي

وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد، وقد جمعت في أصلها بالمصطكي وبالشمع الأبيض المصفى ولفت في تطاير الوشي والخز وما أشبه ذلك لتكون تذكرة عند البين.

وأما تهادي المساويك بعد مضعها والمصطكي إثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء. وفي ذلك أقول قطعة منها:

أرى ريقها ماء الحياة تيقناً على أنها لم تبق لي في الهوى حشى

خير: وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المنزهات ماشياً وامرأة خلفه تمشي إليه، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلمس الأرض التي فيها أثر رجله. وفي ذلك أقول قطعة، أونها:

يلومونني في موطنى خفه خطأ ولو علموا عاد الذي لام يحسد

خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
وأضمن أن المحل عنكم يبعد
فذاك سعيد طيب ليس يجحد
لعينيه من جبريل إثر ممجد
فقام له منه خوار ممد

فيأهل أرض لاتجود سحابها
خذوا من تراب فيه موضع وطئه
فكل تراب واقع فيه رجله
كذلك فعل السامري وقد بدا
فصير جوف العجل من ذلك الثرى

وأقول:

وبورك من فيها وحل بها السعد
وأموالها شهد وتربتها ند

لقد بوركنت أرض بها أنت قاطن
فأحجارها در وسعداتها ورد

ومن القنوع الرضا مزار الطيف، وتسليم الخيال. وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق، وعهد لا يحول، وفكر لا ينقضي. فإذا نامت العيون
وهدأت الحركات سرى الطيف. وفي ذلك أقول:

على احتفاظ من الحراس والحفظة
ولذة الطيف تنسى لذة اليقظة

زار الخيال فتى طالت صبايته
فبت في ليلتي جذلان مبتهجا

وأقول:

ولليل سلطان وظل ممد
وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد
كما قد عهدنا قبل والعود أحمد

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة
وعهدي بها تحت التراب مقيمة
فعدنا كما كنا وعاد زماننا

وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى، مختصرة، سبق إلى معنى من المعاني، فأبو إسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل
علته مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقب، على بهاء الأبدان. وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي جعل علته أن نكاح الطيف لا يفسد
الحب ونكاح الحقيقة يفسده. والبحثري جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده، وعلة زواله خوف الغرق في دموعه. وأنا أقول من غير أن
أمثل شعري بأشعارهم، فلهم فضل التقدم والسابقة إنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم وجريا في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي
مُجّوا وأوضحوا، أبياتاً بنيت فيها مزار الطيف مقطعة:

وأشفق أن يذيبك لمس كفي
وأعتمد التلاقي حين أغفي
من الأعضاء مستتر ومخفي
من الجسم المواصل ألف ضعف

أغار عليك من إدراك طرفي
فأمتنع اللقاء حذار هذا
فروحي إن أنم بك ذو انفراد
ووصل الروح لطف فيك وقعاً

وحال المزور في المنام ينقسم أقساماً أربعة: أحدهما محب مهجور قد تناول غمه، ثم رأى في هجمته أن حبيبه وصله ففسر بذلك وابتهج، ثم
استيقظ فأسف وتلهف حيث علم أن ما كان فيه أمان النفس وحديثها. وفي ذلك أقول:

أنت في مشرق النهار بخيل

وإذا الليل جن كنت كريماً

تجعل الشمس منك لي عوضاً هي

هات ماذا الفعال منك قوياً

زارني طيفك البعيد فيأتي

واصلألي وعائداً وندياً

غير أني منعنتي من تمام العي

ش لكن أبحت لي التشميما

فكأنني من أهل الأعراف لا الفر

دوس داري ولا أخاف الجحيم

والثاني محب مواصل مشفق من تغير يقع، قد رأى في وسنه أن حبيبه يهجره فاهتم لذلك همماً شديداً، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق: والثالث محب داني الديار يرى أن الثنائي قد فدحه، فيكثرث ويوجل ثم يتبه فيذهب مابه ويعود فرحاً. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

رأيتك في نومي كأنك راحل

وقمنا إلى التوديع والدمع هامل

وزال للكري عني وأنت معانقي

وغمي إذا عاينت ذلك زائل

فجددت تعنيقاً وضماً كأنني

عليك من البين المفرق واجل

والرابع محب نائي المزار، يرى أن المزار قد دنا، والمنازل قد تصاقت فيراتح ويأنس إلى فقد الأسي، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم، وقد جعلت في بعض قولي علة النوم والطمع في طيف الخيال، فقلت:

طاف الخيال على مستهتر كلف

لولا ارتقاب مزار الطيف لم ينم

لا تعجبوا إذ سرى والليل معتكر

فنوره مذهب في الأرض للنظم

ومن القنوع أن يقنع المحب بالنظر إلى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب، وقد رأينا من هذه صفته. ولقد حدثني أبو الوليد أحمد بن محمد ابن إسحاق الخازن رحمه الله عن رجل جليل، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا ومن القنوع أن يرتاح المحب، إلى أن يرى من رأى محبوبه ويأنس به ومن أتى من بلاده، وهذا كثير. وفي ذلك أقول:

توحش من سكانه فكأنهم

مساكن عاد أعقبته ثمود

وما يدخل في هذا الباب أبيات لي، موجهها أني تزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى، فتمددنا في رياض أريضة، وأرض عريضة لبصر فيها منفسح، وللنفس لديها مسرح، بين جداول تطرد كأباريق اللجين وأطيبار تغرد بألحان تزري بما أبدعه معبد، والغريضة، وثمار مهدلة قد ذلت للأيدي ودنت للمتناول، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فننتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة وأثمار مندفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ، ونواوير مونة مختلفة الألوان تصفحها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سحسج، وأحلاق جلاس تفوق كل هذا، في يوم ربيع ذي شمس ظليلة، تارة يغطيها العيم الرقيق والمزن اللطيف، وتارة تتجلى، فهي كالعذراء الحفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها، حذر عين مراقبة. وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحدث أخرى، وذلك لسر كان له فعرض لي بذلك، وتداعبنا حيناً فكلفت أن أقول إلى لسانه شيئاً في ذلك، فقلت بديهة، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا، وهي:

ولما تروحنا بأكناف روضة

مهذلة الأفنان في تربها الندي

وقد ضحكت أنوارها وتضوعت
 وأساورها في ظل فيء ممدد
 وأبدت لنا الأطيوار حسن صريفها
 فممن بين شاك شجوه ومغرد
 وللماء فيما بيننا متصرف
 وللعين مرتاد هناك ولليد
 وما شئت من أخلاق أروع ماجد
 تتغض عندي كل ما قد وصفته
 كريم السجايا للفخار مشيد
 فيا ليتني في السجن وهو معانقي
 ولم يهنني إذ غاب عني سيدي
 فمن رام منا أن يبدل حاله
 وأنتم معاً في قصر دار المجدد
 فلا عاش إلا في شقاء ونكبة
 بحال أخيه أو بملك مخد
 ولا زال في بؤسي وخزي مردد

فقال هو ومن حضر: أمين أمين. وهذه الوجوه التي عدت وأوردت في حقائق القناعة هي الموجودة في أهل المودة، بلا تزيد ولا إعياء.

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم وإبانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرمى البعيدة، وكل قال على قدر قوة طبعه، إلا أنه تحكم باللسان وتشدق في الكلام واستطال بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل: فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما. ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وأشبه هذا: وكل مبادر إلى احتواء الغاية في الاستقصاء، وإحراز قصب السبق في التدقيق. ولي في هذا المعنى قول لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولاً، ولا ورائه مكاناً، مع تبين علة قرب المسافة البعيدة، وهو:

وقالوا بعيد قلت حسبي بأنه
 معي في زمان لا يطيق محيداً
 تمر على الشمس مثل مرورها
 به كل يوم يستتير جيداً
 فمن ليس بيني في المسير وبينه
 سوى قطع يوم هل يكون بعيداً
 وعلم إله الخلق يجمعنا معاً
 كفى ذا التداني ما أريد مزيداً

فبينت كما ترى أي قانع بالاجتماع مع من أحب في علم الله، الذي السموات والأفلاك والعالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشد عنه منها شيء، ثم اقتضرت من علم الله تعالى على أنه في زمان، وهذا أعم مما قاله غيري في إحاطة الليل والنهار، وإن كان الظاهر واحداً في البادي إلي السامع؛ لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات وقطع الفلك وحركاته وأجرامه، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى، وليس هذا الزمان، فإنهما بعض الزمان، وإن كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد، فهذا يخطئه العيان، وعلل الرد عليه بينة ليس هذا موضعها، ثم بينت أنه وإن كان في أقصى المعمور من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب، وهذا طول السكنى، فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم؛ إذ الشمس تبدو في أول النهار في أول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب.

ومن القنوع فصل أورده وأستعبد بالله منه ومن أهله، واحمده على ما عرف نفوسنا من منافرتة، وهو أن يضل العقل جملة، ويفسد القرينة، ويتلف التمييز ويهون الصعب، ويذهب الغيرة، ويعدم الأنفة، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يجب. وقد عرض هذا لقوم أعادنا الله من البلاء. وهذا لا يصح إلا مع كلبية في الطبع، وسقوط من العقل الذي هو عيار على ما تحته، وضعف حس. ويؤيد هذا كله حب شديد معم. فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الحسيس، وتولدت هذه الصفة

الردلة، وقام منها هذا الفعل المقدور القبيح، وأما رجل معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ولو مات وهدماً وتقطع حياً وفي ذلك أقول زارياً على بعض المسامحين في هذا الفصل:

رأيتك رحب الصدر ترضى بما أتى وأفضل شيء أن تلين وتسمحا
فحظك من بعض السواني مفضل على أن يحوز الملك من أصلها الرحي
وعضو بعير فيه في الوزن ضعف ما تقدره في الجدي فاعص الذي لحا
ولعب الذي تهوى بسيفين معجب فكن ناحياً في نحوه كيفما نحا

الباب السادس والعشرون

الضنى

ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل، إما بين وإما بمجر وإما بكتمان واقع المعنى، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول، وربما أضجعه ذلك. وهذا الأمر كثير جداً موجود أبداً، والأعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل، ويميزها الطبيب الحاذق والمفردس الناقد. وفي ذلك أقول:

يقول لي الطبيب بغير علم تداو فأنت يا هذا عليل
ودائي ليس يدريه سوائي ورب قادر ملك جليل
أأكتمه ويكشفه شهيق يلازمني وإطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه وجسم كالخيال ضن نحيل
وأثبت ما يكون الأمر يوماً بلا شك إذا صح الدليل
فقلت له أبني قليلاً فلا والله تعرف ما تقول
فقال أرى نحولاً زادجداً وعلتك التي تشكو ذبول

فقلت له الذبول تغل منه ال جوارح وهي حمى تستحيل
وما أشكو لعمر الله حمى وإن الحر في جسمي قليل
فقال أرى التفاتاً وارتقاباً وأفكاراً وصمتاً لا يزول
وأحسب أنها السوء فانظر لنفسك إنها عرض ثقيل
فقلت له كلامك ذا محال فما للدمع من عيني يسيل
فأطرق باهتاً مما رآه ألا في مثل ذا بهت النبيل

ألا في مثل ذا ضلت عقول

فروع النبت إن عكست أصول

سواه بيره ما لدغت كفيل

فقلت له دوائي منه دائي

وشاهد ما أقول يرى عياناً

وترياق الأفاعي ليس شيء

وحدثني أبو بكر محمد بن بقي الحجري، وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً، عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره، أنه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها، فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكرًا، وهو قد تكشف لبعض حاجته، فراعها كبر أيره، ففرت إلى أمها وتفادت منه. فرام بها كل من حواليتها أن ترد إليه، فأبت وكادت أن تموت، ففارقها ثم ندم، ورام أن يراجعها فلم يمكنه، واستعان بالأهري وغيره. فلم يقدر أحد منهم على حيلة في أمره، فاختلف عقله وأقام في المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد، ولقد كان إذا ذكرها يتنفس الصعداء.

قد تقدم في أشعاري المذكورة في هذه الرسالة: من صفة النحول مفرقاً ما استغنيت به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوف الإطالة. والله المعين والمستعان.

وربما ترقت إلى أن يغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس.

خير: وإن لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد، وقد بلغ بها حب فتى من إخواني جداً من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود، وكادت تختلط. واشتهر الأمر وشاع جداً حتى علمه الأبعاد، إلى أن تدوركت بالعلاج، وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط وترك التداوي خرج الأمر عن حد الحب إلى حد الوله والجنون، وإذا أغفل التداوي في الأول إلى المعاناة قوى جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال. ومن بعض ما كتبت إليه قطعة، منها:

أي خلق يعيش دون فؤاد

وتفز بالثواب يوم المعاد

من خلاخيلها حلي الأقياد

عشقها بين ذا الورى لك بادي

قد سلبت الفؤاد منها اختلاساً

فأغتها بالوصل تحي شريفاً

وأراها تعترض أن دام هذا

أنت حقاً متيم الشمس حتى

خير: وحدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن جدير، المعروف بالبليبي: أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن جدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لأخيه، فمنعها وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً منه.

وأخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة، أن سبب جنون يحيى بن أحمد بن عباس بن أبي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وحداً شديداً، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات.

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدوا عقولهما واختلطا وصارا في القيود والأغلال، فأما مروان فأصابته ضربة مخمطة يوم دخول البربر قرطبة وانتهاهم إليها، فتوفى رحمه الله. وأما يحيى بن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مراراً وحالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه الحنة. وكان أستاذاً وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوي. وكان يحيى لعمرى حلواً من الفتيان نبيلاً.

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً، ولكن لم نسهم لحفائهم وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد أنيت الرجاء وانصرم الطمع، فلا دواء له بالوصل ولا غيره، إذ قد استحكم الفساد في الدماغ، وتلفت المعرفة وتغلبت الآفة. أعاذنا الله من البلاء بطوله، وكفانا النقم منه.

الباب السابع والعشرون

السلو

وقد علمنا أن كل ماله أول فلا بد من آخر، حاشى نعيم الله عز وجل، الجنة لأوليائه وعذابه بالنار لأعدائه. وأما أعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين: إما احترام منية، وإما سلو حادث. وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد، فكما نجد نفساً ترفض الراحة والملاذ للعمل في طاعة الله تعالى والرياء في الدنيا، حتى تشتت بالزهد، فكذلك نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد، فكما نجد نفساً ترفض الراحة والملاذ للعمل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا، حتى تشتت بالزهد، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للألفة المستحكمة المنافرة للغدر، أو استمرار سوء المكافأة في الضمير، وهذا أصح السلو، وما كان من غير هذين الشئيين فليس إلا مذموماً. والسلو المتولد من الحجر وطوله إنما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها، فيفتت نزاعها ولا تقوى رغبتها. ولي في ذم السلو قصيدة، منها:

وإن نطقت قلت السلام رطاب

إذا ما رنت فالحي ميت بلحظها

فلحى طعام والنجيع شراب

كأن الهوى ضيف ألم بمهجتي

ومنها:

ولو امطرته بالحريق سحاب

صبور على الأزم الذي العز خلفه

خمو لا وفي بعض النعيم عذاب

جزوعاً من الراحة إن أنتجت له

والسلو في التجربة الجميلة ينقسم قسمين: سلو طبيعي، وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال، ويكون الإنسان كأنه لم يجب قط: وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخلاق ومذمومة، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان. وستأتي مبينة إن شاء الله تعالى، وربما لم تلحقه اللاتمة لعذر صحيح والثاني سلو تطبعي، قهر النفس، وهو المسمى بالتصير، فترى المرء يظهر التجلد وفي قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفي، ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض، أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر وهذا قسم لا يذم آتية، ولا يلام فاعله لأنه لا يحدث إلا عن عظمة، ولا يقع إلا عن فادحة، إما لسبب لا يصير على مثله الأحرار، وإما لخطب لا مرد له تجري به الأقدار وكفالك من الموصوف به أنه ليس بناس لكنه ذاكراً، وذو حنين واقف على العهد، ومتجزع مرارات الصبر، والفرق العامي بين المتصير والناسي، أنك ترى المتصير وإن أبدي غاية الجلد وأظهر سب محبوه والتحمل عليه، يحتمل ذلك من غيره. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

وإن كنت أبدي الهجر لست معادياً

دعوني وسبي للحبيب فإنني

أجاد فلقاه الإله الدواهي

ولكن سبي للحبيب كقولهم

والناس ضد هذا، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإيجابتها وامتناعها وقوة تمكن الحب من القلب أو ضعفه، وفي ذلك أقول، وسميت السالي فيه المتصير، قطعة منها:

حكم المقصر غير حكم المقصر

ناسي الأحية غير من يسلوهم

ما الصابر المطبوع كالمتصير

ما قاصر للنفس غير مجيبيها

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة، وعلى حسبها وبتقدير الواقع منها يعذر للسالي ويذم. فمنها الملل، وقد قدمنا الكلام عليه، وإن من كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقة، والمتسم به صاحب دعوى زائفة، وإنما هو طالب لذة ومبادر شهوة، والسالي من هذا الوجه ناس مذموم⁰ ومنها الاستبدال، وهو وإن كان يشبه الملل ففيه معنى زائد، وهو بذلك المعنى أقيح من الأول وصاحبه أحق بالذم.

ومنها حياء مركب يكون في الحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد، فيتناول الأمر، وتتراخي المدة، ويبلو جديد المودة، ويحدث السلو. وهذا وجه إن كان السالي عنه ناسياً فليس بمنصف، إذ منه جاء سبب الحرمان، وإن كان متصيراً فليس بملوم، إذ أثر الحياء على لذة نفسه.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحياء من الإيمان والبذاء من النفاق". وحدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صفوان الزرقعي عن زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء. فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب وابتداؤها من قبله، والذم لاصق به في نسيانه لمن يجب.

ثم منها أسباب أربعة هن من قبل المحبوب وأصلها عنده، فمنها: الهجر، وقد مر تفسير وجوهه. ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً في هذا الباب يوافقه، والهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً إلى السلو وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيء، لأنه العذر الصحيح، ولا من مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صلة من الهجر أيضاً في شيء، إنما ذاك هو النفار. وسيقع الكلام في هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى. لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتتقيل واش، ولذنب واقع، أو لشيء قام في النفس، ولم يمل إلى سواك ولا أقام أحداً غيرك مقامك. والناس في هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب؛ لأنه لا تقع حالة تقيم العذر في نسيانه، وإنما هو راغب عن وصلك، وهو شيء لا يلزمه. وقد تقدم من أذمة الوصال وحق أيامه، ما يلزم التذكر ويوجب عهد الألفة، ولكن السالي على جهة النصير والتجلد ها هنا معذور، إذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ولا للمواجهة دلالة. وقد استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى غدرًا، إذ ظاهرهما واحد، ولكن علبتهما مختلفتان. فلذلك فرقنا بينهما في الحقيقة. وأقول في ذلك شعراً، منه:

فكونوا كمن لم أدر قط فإنني

كأخر لم تدروا ولم تصلوه

أنا كالصدي ما قال كل أجبيه

فما شئتموه اليوم فاعتمدوه

وأقول أيضاً قطعة، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم، واستيفظت فأضفت إليها البيت الرابع:

ألا لله دهر كنت فيه

أعز على من روحي وأهلي

فما برحت يد الهجران حتى

طواك بنانها كي السجل

سقاني الصبر هجركم كما قد

سقاني الحب وصلكم بسجل

وجدت الوصل أصل الوجد حقاً

وطول الهجر أصلاً للتسلي

وأقول أيضاً قطعة:

لو قيل لي من قبل ذا

أن سوف تسلو من تود

فخلفت ألف فسامة

لا كان ذا أبدأ الأبد

وإذا طويل الهجر ما

معه من السلوان بد

الله هجرك إنه

ساع لبرئي مجتهد

فالآن أعجب للسل

وكنت أعجب للجداد

وأرى هواك كجمرة

نحت الرماد لها مدد

وأقول:

كانت جهنم في الحشى من حبكم

فلقد أراها نار إبراهيم

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قبل المحبوب، فالمتصير من الناس فيها غير مذموم. لما ستورده إن شاء الله في كل فصل منها.
فمنها نفار يكون في المحبوب وانزواه قاطع للأطماع.

خير:

وإني لأحتر عني أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً؛ وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائها، عديمة الهزل؛ منيعة البذل بديعة البشر، مسبلة الستر؛ فقيدة الدام، قليلة الكلام؛ مغضوضة البصر، شديدة الحذر؛ نقيّة من العيوب، دائمة القطوب؛ حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض مليحة الصدود، رزينة العقود؛ كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها. تزدان في المنع والبخل، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً فحنحت إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة، غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع، بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما تصطنع له في دور الرؤساء، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا، ممن يخف موضعه ويلطف محله، فلبثنا صدرأً من النهار ثم تنقلنا إلى قصة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها، مفتحة الأبواب. فصرن ينظرون من خلال الشراحيب وأنا بينهن فيني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقرها متعرضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة. فأتمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره. وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عدداً كثيراً. وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الإطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدليج في الآثار. ثم نزلن إلى البستان فرغب عمجائزنا وكرائمتنا إلى سيدتهما في سماع غنائها، فأخذت العود وسوته بخفر وحجل لا عهد لي بمثله، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنته ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول:

كانت مغاربها جوف المقاصير

إنّي طربت إلى شمس إذا غربت

كأن أعطافها طي الطوامير

شمس ممثلة في خلق جارية

ولا من الجن إلا في التصاوير

لست من الإنس إلا في مناسبة

والريح عنبرة والكل من نور

فالوجه جوهره والجسم عبهرة

تخطو على البيض أوحدهم للقوارير

كأنها حين تخطو في مجاسدها

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا. وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها، وفي ذلك أقول:

وصل ما هذا لها بنكير

لا تلمها على النفار ومنع ال

أو يكون الغزال غير نفور

هل يكون الهلال غير بعيد

وأقول:

ولفظك قد ضننت به عليا

منعت جمال وجهك مقلتيا

فلمست تكلمين اليوم حياً

أراك نذرت للرحمن صوماً

هنياً ذا لعباس هنياً

وقد غنيت للعباس شعراً

فلو يلقاك عباس لأضحى

لفوز قانيا وبكم شجياً

ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا الحديثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ريبض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة. وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمر أوجبت ذلك. ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وبعثاء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والإستتار، وأرزمتم الفتنة وألقت باعها وعمت الناس، وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقينا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة. واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها. وقد ارتفعت الواعية، قائمة في المأم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب فلقد أثارت وجداً دفيناً وحررت ساكناً، وذكرتي عهداً قديماً وحباً تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالي وأخباراً بوالي ودهوراً فواني وأياماً قد ذهبت وأثاراً قد دثرت، وجددت أحزاني وهيجت بلايلي، على أني كنت في ذلك الهنار مرزاً مصاباً من وجوه، وما كنت نسيت لكن زاد الشجي وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأشف، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه بجمياً. فقلت قطعة، منها:

يبكي لميت مات وهو مكرم

وللحي أولى بالدموع الذوارف

فيا عجباً من آسف لا مرئ ثوى

وما هو للمقتول ظالماً بآلف

ثم ضرب الدهر ضربانه وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة فزلت على بعض نساتنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرأة الهندية، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصد نحوه متنوراً، ويرتاد فيه متخيراً، وينصرف عنه متحيراً. فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذرها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت، ولذلك قال من قال: إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعنت جودة لصره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير، مثل المحجر والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن، وإني لو نلت منها أقل وصل وأنست لي بعض الأنس لخلولت طرباً أو لمت فرحاً، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني.

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم؛ إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء، ولا عهد يقتضي المحافظة، ولا سلف ذمام، ولا فرط تصادف يلام على تضييعه ونسيانه.

ومنها جفاء يكون من المحبوب، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة تسلي، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو كبيراً منقطعاً أحتمل وأغضى عليه، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه. ولا يلام الناس لمن يجب في مثل هذا. ومنها الغدر، وهو الذي لا يحتمله أحد، ولا يغضى عليه كريم، وه المسلاة حقاً. ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه. ولا أن القلوب بيد مقلبيها لا إله إلا هو ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا إحاطة استحسانه، ولا ذاك لقلت إن المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف. ولا أدعى إلى السلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسرى السجاي من الغدر، فما يصبر عليه إلا دينه المروءة حسييس الهمة ساقط الأنفة، وفي ذلك أقول قطعة، منها:

هواك فلست أقربه غرور

وأنت لكل من يأتي سرير

وما إن تصبرين على حبيب

فحولك منهم عدد كثير

فلو كنت الأمير لما تعاطى

لقائك خوف جمعهم الأمير

رأيتك كالأماني ما على من

يلم بها ولو كثروا غرور

ولا عنها لمن يأتي دفاع

ولو حشد الأنام لهم نفير

ثم سبب ثامن، وهو لا من الحب ولا من المحبوب، ولكنه من الله تعالى، وهو اليأس. وفروعه ثلاثة: إما موت، وإما بين لا يرجى معه أوبة، وإما عارض يدخل على المتحايين بعلقة الحب التي من أجلها وثق المحبوب فيغيرها. وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصير، وعلى الحب الناسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغضاظة والدم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل، وإن لليأس لعملاً في النفوس عجيماً. وثلجاً لحر الأكباد كبيراً. وكل هذه الوجوه المذكورة أولاً وآخرها فالتأني فيها واجب، والتربص على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماع وانحسرت الآمال فحينئذ يقوم العذر. وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن، توثنون على المثار على اللذات. وهذا يدخل في باب السلو. ولقد أكثر الحسن بن هانئ في هذا الباب وافترحه به، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره، تحكماً بلسانه واقتداراً على القول، وفي مثل هذا أقول شعراً، منه:

خل هذا وبادر الدهر وأرحل

في رياض الربى مطي القفار

واحدها بالبديع من نغمات ال

مود كيما تحت بالمزمار

إن خيراً من الوقوف على الدا

ر وقوف البنان بالأوتار

وبدأ النرجس البديع كصب

حائر الطرف مائلاً كالمدار

لونه لون عاشق مستهام

وهو لا شك هائم بالبهار

ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً، ومعصبة الله بشرب الراح لنا خلقاً، وكساد المهمة لنا صفة، ولكن حسبنا قول الله تعالى، ومن أصدق من الله قيلاً في الشعراء: "لم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون". فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ. وكان سبب هذه الأبيات أن حفني العامرية، إحدى كرائم المظفر عبد الملك ابن أبي عامر، كلفتني صنعتها فأحببتها، وكنت أجلها، ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبيطرة ثقة جدا. ولقد أنشدتها بعض إخواني من أهل الأدب فقال سروراً بما: يجب أن توضع هذه في جملة عجائب الدنيا.

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية: منها ثلاثة هي من الحب، اثنان منها يذم السالي فيهما على كل وجه، وهما الملل والاستبدال، وواحد منها يذم السالي فيه ولا يذم المتصير، وهو الحياء كما قدمنا. وأربعة من المحبوب، منها واحد يذم الناي فيه ولا يذم المتصير، وهو الحجر الدائم. وثلاثة لا يذم السالي فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصيراً، وهي النفار والجفاء والغدر. ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل، وهو اليأس إما بموت أو بين أو آفة ترمين. في هذه معذور.

وعني أخيرك أبي جبلت على طبيعتي لا يهنئي معهما عيش أبداً، وإني لأبرم بجياتي باجتماعهما وأود التثبت من نفسي أحياناً لأفقدتها أنا بسببه من التكد من أجلهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والعيب، والباطن والظاهر، تولد الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دربت، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته، وعزة نفس لاتقر على الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه. فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها وإني لأحفي فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت، وفي القلب ما فيه وفي ذلك أقول قطعة، منها:

لي حلتان أذاقاني الأسي جرماً

ونغصا عيشي واستهلكا جلدي

كلتاها تطبيني نحو جبلتها
كالصيد ينشب بين الذئب والأسد
وفاء صدق فما فارقت ذا مقة
فزال حزني عليه آخر الأبد
وعزة لا يحل الضيم ساحتها
صرامة فيه بالأموال والولد

ومما يشبه ما نحن فيه، وإن كان أيس منه، أن رجلاً من إخواني كنت أحلته من نفسي محلها، وأسقطت المؤونة بيني وبينه، وأعددت ذخراً وكترأ، وكان كثير السمع من كل قائل، فدب ذو النميمة بيني وبينه، فحاكوا له وأبجح سعيهم عنده، فانقبض عما كنت أعهده. فتربصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب، ورضي العاتب، فلم يزد إلا انقباضاً فتركته وحاله.

الباب الثامن والعشرون

الموت

وربما تزايد الأمر ورق الطبع وعظم الإشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار: من عشق فعف فمات فهو شهيد. وفي ذلك قطعة، منها:

فإن أهلك هوى أهلك شهيداً
وإن تمنن بقيت قريب عين
روى هذا لنا قوم ثقات
ثوروا بالصدق عن جرح ومين

ولقد حدثني أبو السرى عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق به، أن الكاتب ابن قزمان امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز، أحمى الحاجب هاشم بن عبد العزيز. وكان أسلم غاية في الجمال، حتى أضجره لما به وأوقعه في أسباب المنية. وكان أسلم كثير الإلمام به والزيارة له ولا علم له بأنه أصل دائه، إلى أن توفي أسفاً ودفناً.

قال المخبر: فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال: هلا أعلمتني؟ فقلت: ولم؟ قال: كنت والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه، فما علي في ذلك ضرر. وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفين، مع حظ من الفقه وافر، وذا بصارة في الشعر، وله شعر جيد، وله معرفة بالأغاني وتصرفها، وهو صاحب تأليف في طرائق غناء زرياب وأخباره، وهو ديوان عجيب جدا. وكان أحسن الناس خلقاً وخلقاً، وهو والد أبي الجعد الذي كان ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة.

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها. فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقتها النحول والأسف، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت، وكان ذلك سبب موتها. ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بما ألما لقيتها وهي قد صارت كالخيل نحولاً ورقة فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان؟ فتنفست الصعداء وقالت: والله لأنسيته أبداً، وإن كان جفاني بلا سبب. وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً.

وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر محمد بن عامر، وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكرامتها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها. وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه تغضب كل واحد منهما الكلمة التي لا قدر لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام، وكانت قد شفها حبه واضناها الوجد فيه وانحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيل المتوسم دفناً، لا يلهيها من الدنيا شيء، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها. إلى أن توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة، وهو ابن اثنين وعشرين سنة، فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً. ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع حواريتها ألما كانت تقول بعده: ما يقوى صبري وبمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سروري وينيقي

أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً، فقد أمنت هذا الذي ما كنت أتخوف غيره، وأعظم آمالي اليوم للحاق به. ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، فكان كما قدرت. غفر الله لها ورضي عنها.

وأما خبر صاحبنا أبي عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمي، المعروف بابن الطنبي. فإنه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه، لم أشد له مثلاً حسناً وجمالاً وخلقاً وعفة وتصوناً وأدباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً ودمائة وحلاوة ولباقة وإغضامو عقلا ومروعة ودينياً ودارية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة، وشاعراً مفلحاً حسن الخط، وبلغاً مفنناً، مع حظ صالح من الكلام والجدال، وكان من غلمان أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي أستاذي في هذا الشأن، وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عاماً في السن، وكنت أنا وهو متقاربين في الأسنان. وكنا أليفين لا نفترق، وخذين لا يجري الماء بيننا إلا صفاء، إلى أن ألفت الفتنة جرائها وأرخت عز إليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها، وكان مسكن أبي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مغيث، وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسكن مدينة المرية، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً وآخر ما خاطبني به رسالة في درجها هذه الأبيات:

سي جديداً لدي غير رثيث

وأناجيك في بلاط مغيث

ق أنك البلط كالمستغيث

سار قلبي إليك سير الحثيث

ليس لي غير ذكركم من حديث

في صميم الفؤاد غير نكيث

ليت شعري عن حبل ودك هل يم

وأراني أرى محياك يوماً

فلو أن الديار ينهضها الشو

ولو أن القلوب تستطيع سيراً

كن كما شئت لي فإني محب

لك عندي وإن تناسيت عهد

فكنا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسيني، المسمى بالناصر بالخلافة، وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس. وفي إثر ذلك نكبني خيران صاحب المرية، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين - وقد انتقم الله منهم - عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعي في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر. ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي، المعروف بابن المقل، فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة، وبين خير أهل وجيران، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة. ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن ابن محمد، وسأكناه بما. فوجدت بلنسية أبا شاكر عبد الرحمن بن محمد بن موهب العنبري صديقنا، فعنى إلى أبا عبد الله بن الطنبي وأخبرني بموته رحمه الله ثم أخبرني بعد ذلك بمدينة القاضي أبو الوليد يونس بن محمد المردي وأبو عمر وأحمد ابن محرز، أن أبا بكر المصعب بن عبد الله الأزدي، المعروف بابن الفرضي، حدثهما، وكان والد المصعب هذا قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي؛ وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة قالوا: قال لنا المصعب: سألت أبا عبد الله بن الطنبي عن سبب علته، وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضي فلم يبق إلا عين جوهرها المخبر عن صفتها السالفة، وصار يكاد أن يطيره النفس، وقرب من الإحناء، والشجا باد على وجهه، ونحن منفردان. فقال لي: نعم؛ أخبرك أي كنت في باب داري بقديد الشمس في حين دخول علي بن حمود قرطبة؛ والجيش واردة عليها من الجهات تتسارب فأريت في جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيت، فغلب على عقلي وهام به لي، فسألت عنه فقيل لي: هذا فلان بن فلان، من سكان جهة كذا، ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المآخذ. فيست من رؤيته بعد ذلك. ولعمري يا أبا بكر لا فارقني حبه أو يوردي رمسى.

فكان كذلك، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدرية، وقد رأيت له لكني أضربت عن اسمه لأنه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل. عفا الله عن

هذا على أن أبا عبد الله، أكرم الله نزله، ممن لم يكن له وله قط، ولا فارق الطريقة المثلى؛ ولا وطئ حراماً قط؛ ولا قارف منكراً؛ ولا أتى منهاً عنه يجلب بدينه ومروءته؛ ولا قارض من جفا عليه؛ وما كان في طبقتنا مثله. ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم أقدم شيئاً على قصد أبي عمرو القاسم بن يحيى التميمي أخي عبد الله رحمه الله. فسألته عن حاله وعزيمته عن أخيه وما كان أولى بالتعزية عنه مني. ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية فأخبرني عنه أن لما قربت وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا بجميع شعره وبكتفي التي كنت خاطبته أنا بها، فقطعها كلها ثم أمر بدفنها. قال أبو عمرو: قلب له: يا أخي دعها تبقى. فقال: إني أقطعها وأنا أدري أني أقطع فيها أدباً كثيراً، ولكن لو كان أبو محمد بعيني حاضراً لدفعتها إليه تكون عنده تذكراً لمودتي، ولكني لا أعلم أي البلاد أضمرته ولا أحي هو أم ميت. وكانت نكبتني اتصلت به ولم يعلم مستقري ولا إلى ما آل إليه أمري فمن مرآتي له قصيدة، منها:

فوجدني بعدك لا ستتر

وللدهر فينا كروور ومر

فأسكبت عيني عليك العبر

لئي سترتك بطول اللحد

قصدت ديارك قصد المشوق

فألقيتها منك قفراً خلاء

وحدثني أبو القاسم الهمداني رحمه الله قال: كان معنا ببغداد أخ لعبد الله ابن يحيى بن أحمد بن دحون العقبة، الذي عليه مدار الفتيا بقرطبة، وكان أعلم من أخيه وأجل مقدراً، ما كان في أصحابنا ببغداد مثله، وأنه اجتاز يوماً بدر بقرطبة؛ في زقاق لا ينفذ. فدخل فيه فرأى في أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه، فقالت له: يا هذا، إن الدرب لا ينفذ، قال: فنظر إليها فهام بها. قال: وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها، وخشى الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله، وكان فيما ذكر من الصالحين.
حكاية:

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر، أن رجلاً أندلسياً باع جارية، كان يجد بها وحداً شديداً، لفاقة أصابته، من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التبع. فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج. فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه، فتحمل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد. فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدى إلى الملك فتعرض له وصاح، فسمعه فأمر بإدخاله، والملك قاعد في عليية له مشرفة عالية فوصل إليه. فما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المتباع فحضر، فقال له: هذا رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك. فأبى المتباع وقال: أنا أشد حياً لها منه وأخشى أن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً أو أنا في أسوأ من حالته. فعرض له الملك ومن حوالياً من أمواليهم، فأبى ولج واعتذر بمحبته لها، فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف قال للأندلسي: يا هذا مالك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدت لك بأبلغ سعي، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك. فقال له الأندلسي: فمالي بيدك حيلة؟ قال له: وهل ها هنا غير الرغبة والبذل، ما أستطيع لك أكثر. فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصب من أعلى العلية إلى الأرض. فارتاع الملك وصرخ، فابتدر الغلمان من أسفل، فقضى أنه لم يتأذى في ذلك الوقوع كبير أذى، فصعد به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال: أيها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها ثم هم أن يرمي نفسه ثانية، فمنع. فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة، ثم التفت إلى المشتري فقال: يا هذا، إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله، فقال: نعم. قال: فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه، فأنت قم فصحح حبك وترام من أعلى هذه القصبية كما فعل صاحبك، فإن مت فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية، إذ هي في يدك ومعني صاحبك عنك، وإن أبيت نزع الجارية منك رغباً ودفعتها إليه، فتمنع ثم قال، أترامى. فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجح القهقري، فقال له الملك: هو والله ما قلت، فهم ثم نكل،

فلما لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعب بنا، يا غلمان، خذوا بيديه وأرموا به إلى الأرض فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية. فقال له: جزاك الله خيراً. فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.

الباب التاسع والعشرون

قبح المعصية

قال المصنف رحمه الله تعالى: وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنبوا ما حض الله تعالى عليه ورتبه في الألباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى وبخالفون الله بهم، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطية فيوافقون المعصية في جبههم. وقد علمنا أن الله عز وجل ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين: إحداهما لا تشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضي، وهي العقل، وقائده العدل. والثانية: ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي النفس، وقائدها الشهوة. والله تعالى يقول: "إن النفس لأمرارة بالسوء". وكفى بالقلب عن العقل فقال: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد". وقال تعالى: "وحبب ألكم الإيمان وزينه في قلوبكم". وخاطب أولي الألباب.

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان، وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ففي كل جسد منهما حظه على قدر مقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد، تقدست أسماؤه حين خلقه وهياه. فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة، وبهذا حسن الأمر والنهي، ووجب الاكتمال، وصح الثواب والعقاب، واستحق الجزاء. والروح وأصل بين هاتين الطبيعتين، وموصل ما بينهما، وحامل الالتقاء بهما وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز، ومع ذلك احتجاب التعرض للفتن ومداخله الناس جملة والجلوس في البيوت، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أن يكون الرجل حضوراً لا أرب له في النساء ولا جارحة له تعبه عليهن قديماً. وورد: من وقى شر لقلقه وقببه وذبحه فقد وقى شر الدنيا بخافيرها. واللقلق: اللسان. والقبقب: البطن. والذذبذب: الفرج ولقد أخبرني أبو حفص الكاتب هو من ولد روح بن زبناع الجذامي، أنه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير، وقد سئل عن هذا الحديث فقال: القبقب. البطيخ.

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد، ثنا وهب بن مسرة ومحمد بن أبي دليم عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل: "من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة". فسئل عن ذلك فقال: "ما بين لحييه وما بين رجليه".

وإني لأسمع كثيراً ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فأطيل العجب من ذلك، وإن لي قولاً لا أحول عنه: الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيطانين سواء، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستغزه الحرص وتغوله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته، حتماً مقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة.

ولقد أخبرني ثقة صدق من إخواني من أهل النماء في الفقه والكلام المعرفة وذو صلاحية في دينه، أنه أحب جارية نبيلة أدبية ذات جمال بارع، قال: فعرضت لها فنفرت، ثم عرضت فأبت. فلم يزل الأمر يطول وجهاً يزيد، وهي لا تطيع البتة، إلى أن حملني فرط حيي لها مع عمي الصبي على أن نذرت أي متى نلت منها مرادي أن أتوب إلى الله توبة صادقة. قال: فما مرت الأيام والليالي حتى أذعنت بعد شماس ونفار. فقلت له: أنا فلان، وفيت بعهدك؟ فقال: أي والله، فضحكت.

وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يداول في أسمعنا من أن في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله، فلا يمنع من ذلك. وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له: أتخرم رجلاً مسلماً التوبة. قال: ولعهدي بما تبكي وتقول: والله لقد بلغتني بملغاً ما حطر قط لي ببال، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً. ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً. وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني الصلاح، غلطاً بعيداً والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت. والفسادة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل. والصلاح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض إلى المناظر الجالية للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك والفساق كالنار المشتعلة تحرق كل شيء.

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا. ولهذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع نعمة امرأة أجنبية. وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر". وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنص التزليل لشيئاً مقنعاً. وفي إيقاع هذه الكلمة، أعني الهوى. اسماً على معان، واشتقاقها عند العرب، وذلك دليل على ميل النفوس وهويها إلى هذه المقامات. وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها. وشيء أصفه لك تراه عياناً، وهو أي ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها معزلة، وأنت بكلام زائد كانت عنه في غنية، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك. ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفاء به. والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء. وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس في كل مكان. والله عز وجل يقول: "وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم"، وقال تقدست أسماؤه: "ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن". فلولا علم الله عز وجل بركة إغماضهن في السعي لإيصال جبهن إلى القلوب، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حد التعرض فكيف بما دونه.

ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم، وأصل ذلك أي لم أحسن قط بأحد ظنا في هذا الشأن، مع غيرة شديدة ركبت في. وحدثنا أبو عمر وأحمد بن أحمد، ثنا أحمد، ثنا محمد بن علي بن رفاعة، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الغيرة من الإيمان". فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن، وكن قد أنسن مني بكنتمان، فكن يطلعتني على غوامض أمورهن. ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تبهن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب، وإني لأعرف هذا وأتقنه، ومع هذا يعلم الله وكفى به علماً أي بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجرة، وإني أقسم بالله أجل الأقسام أي ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ علقت إلى يومي هذا. والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقي.

حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاج المعافري، وإنه لأفضل قاض رأيته، عن محمد بن إبراهيم الطليطلي عن القاضي بمصر بكر بن العلاء في قول الله عز وجل: "وأما بنعمة ربك فحدث". أن لبعض المتقدمين فيه قولاً، وهو أن المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي من أعظم النعم، ولا سيما في المفترض على المسلمين اجتنابه وأتباعه. وكان السبب فيما ذكرته أي كنت وقت تأجج نار الصبا وشره الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رقباء ورقائب، فلما ملكت نفسي عقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاس في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للأخرة، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة عالماً وعملاً ودينياً وورعاً، فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي: ومات أبو علي رحمه الله في الطريق الحج.

ولقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جارية من بعض قرايئها من اللاتي قد ضمنها معي النشأة في الصبا، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة. وكنت تركتها حين أعصرت ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وأنساب، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت، وانبعث في حديها أزاهير الجمال فتمت وأعتمت، فأنت كما أقول:

خريدة صاغها الرحمن من نور
لو جاءني عملي في حسن صورتها
جلت ملاحظتها عن كل تقدير
يوم الحساب ويم النفخ في الصور

لكنت أحظى عباد الله كلهم
بالبنتين وقرب الخرد الحور

وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف، وقد طبق وصف شابها قرطبة، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية. فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى، ويعاوده منسى الغزل. ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لي أن يزدهيه الاستحسان. ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل. وفي ذلك أقول:

لا تتبع النفس الهوى
إبليس حي لم يمت
ودع التعرض للمحن
والعين باب للفتن

وأقول:

وقائل لي هذا
فقلت دع عنك لومي
ظن يزيدك غياً
أليس إبليس حياً

وما أورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن إيشى رسل الله عليهم السلام إلا ليعلمنا نقصاننا وفاقنا إلى عصمته، وأن بنتنا مدخولة ضعيفة، فإذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيان رسولان أبناء أنبياء رسل ومن أهل بيت نبوة ورسالة متكررين في الحفظ مغموسين في الولاية، محفوفين بالكلاءة، مؤيدين بالعصمة، لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق وبلغا حيث نص الله عز وجل علينا في قرآنه المتزل بالجليلة الموكلة والطبع البشري والحلقة الأصلية، لا بتعمد الخطيئة ولا القصد إليها، إذ النبيون مرؤون من كل ما خالف طاعة الله عز وجلن لكنه استحسان طبيعي في النفس للصور، فمن ذا الذي يصف نفسه مملكتها ويتعاطى ضبطها إلا بحول الله وقوته. وأول دم سفك في الأرض قدم أحد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء". وهذه امرأة من العرب تقول وقد حبلت من ذي قرابة لها حين سئلت: ما يبطنك يا هند؟ فقالت: قرب الوساد وطول السواد. وفي ذلك أقول شعراً، منه:

لا تلم من عرض النفس لما
لا تقرب عرفجاً من لهب
أليس يرضى غيره عند المحن
ومتى قربته قامت دحن
فسد الناس جميعاً والزمن
خلق النفسوان للفحل كما
لا تكن عن أحد تنفى الظنن
كل شكل ينتهى شكله

صفة الصالح من إن سنته

عن قبيح أظهر الطوع الحسن

وسواه من إذا ثقفته

أعمل الحيلة في خلع الرسن

وإني لأعلم في من أهل الصيانة قد أولع بهوى له، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يجب، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده. فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التريص فلم يأت. فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدد عليه وأطال لومه على إخلافه مواعده، فاعتذر وورى. فقلت أنا للذي دعاه: أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول: "ما أحلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم". فضحك من حضر. وكلفت أن أقول في ذلك شيئاً فقلت:

وجرحك لي جرح جبار فلا تلم

ولكن جرح الحب غير جبار

وقد صارت الخيلان وسط بياضه

كنيلوفر حفته روض بهار

وكم قال لي من مت وجداً بحبه

مقالة محلول المقالة زاري

وقد كثرت مني إليه مطالب

ألح عليه تارة وأداري

أما في التوائني ما يبرد غلة

ويذهب شوقاً في ضلوعك ساري

فقلت له لو كان ذلك لم تكن

عداوة جار في الأنام لجار

وقد تتراءى العسكر أن لدي الوغي

وبينهما للموت سيل بوار

وي كلمتان قلتها معرضاً بل مصرحاً برجل من أصحابنا كنا نعرفه كلنا من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل واقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرتة، فلم يمض الزمن حتى مكن الشيطان من نفسه، وفتك بعد لباس النساك، وملك إبليس من خطامه فسول له الغرور، وزين له الويل والثبور، وأجره رسنه بعد إباء. وأعطاه ناصيته بعد شماس، فخب في طاعته وأوضع، واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة، ولقد أطلت ملامه وتشددت في عذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتار، إلى أن أفسد ذلك ضميره علي، وخبث نيته لي، وتريص بي دوائر السوء، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجراراً إليه، فيأنس به ويظهر له عداوتي، إلى أن أظهر الله سريرته، فعلمها البادي والحاضر، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ومنتاباً للفضلاء، ورذل عند إخوانه جملة. أعاذنا الله من البلاء، وسترنا في كفايته، ولا سلينا ما بنا من نعمته. فيا سوءاً لمن بدأ باستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به وأن العصمة ستفارقه، لا إله إلا الله، ما أشنع هذا وأفظعه. لقد دهمته إحدى بنات الحرس، وألقت عصاها به أم طبق. من كان لله أولاً ثم صار للشيطان آخراً، ومن إحدى الكلمتين:

أما الغلام فقد حانت فضيحتة

وأنه كان مستوراً فقد هتكا

ما زال يضحك من أهل الهوى عجباً

فالآن كل جهول منه قد ضحكا

إليك لا تلح صبا هائماً كلفاً

يرى التهتك في دين الهوى نسكاً

نو مخبر وكتاب لا يفارقه

نحو المحدث يسعى حيث ما سلكا

فاعتلص من سمر أقلام بنان فتني

كأنه من لجين صبغ أو سبكاً

يا لائمي سفهاً في ذاك قل فلم

تشهد جبينين يوم الملتقى اشتبكا

إليك عني كذا لا أبتغي البركا

تركت يوماً فإن الحب قد تركا

إلا إذا ما حلت الأزر والتككا

أو تدخل البرد عن إنفاذه السككا

يعلو الحديد من الأصداء إن سبكا

دعني ووردي في الآبار أطلبه

إذا تعففت عف الحب عنك وإن

ولا تحل من الهجران منعقداً

ولا تصحح للسلطان مملكة

ولا بغير كثير المسح يذهب ما

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً، واختصر كتاب الأنباري في الوقف والابتداء اختصاراً حسناً أعجب به من رآه من المقرئين، وكان دائماً على طلب الحديث وتقييده، والمتولي لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين، مثابراً على النسخ مجتهداً به. فلما امتحن بهذه البلية مع بعض العلمان رفض ما كان معنياً وباع أكثر كتبه واستحال استحالة كلية، نعوذ بالله من الخذلان، وقلت فيه كلمة وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في أول خبره ثم تركتها.

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدي في كتاب اللفظ والإصلاح: أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة، من علو طبقتة في الكلام وتمكنه وتحكمه في المعرفة، تسبب إلى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد. فإيا غوثه عيادك يا رب من تولى الشيطان ووقع الخذلان. وقد يعظم البلاء، وتكلم الشهوة، ويهون القبيح ويرق الدين حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبيح والفضائح، كمثل ما دهم عبيد الله بن يحيى الأزدي المعروف بابن الحزيري، فإنه رضي بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه. نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحيطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمّر به المخالف، وتصاغ فيه الأشعار، وهو الذي تسميه العرب الديوث. وهو مشتق من التديث، وهو التسهيل. وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل، ومنه بعير مديث. أي مذلل. ولعمري إن الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلقة، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة، وما بعد هذا مصاب. ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستوراً إلى أن استهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان. وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الحولاني:

شركا لصيد جأذر الغزلان

تحظى بغير مذلة الحرمان

ليبلغ ما يهوى من الرشأ الفرد

فأنتشدني مستبصر جلد

يعيرني قومي بإداركها وحدي

قليل الرشاد كثير السفاه

أمور وجدك ذات اشتباه

ألا هكذا فليكن ذو النواهي

بأرض تحف بشوك العضاه

يا جاعلاً إخراج حر نسائه

إني أرى شركا يمزق ثم لا

وأقول أنا أيضاً:

أباح أبو مروان حر نسائه

فعاثبته الديوث في قبح فعله

لقد كنت أدركت المني غير أنني

وأقول أيضاً:

رأيت الحزيري فيما يعاني

يبيع ويبتاع عرضاً بعرض

ويأخذ ميماً بإعطاء هاء

وبيدل أرضاً تغذي النبات

لقد خاب في تجره ذو ابتياع

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعبد بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان.

ومما يشبه هذا أني أذكر أني كنت في مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته وغمزاً استبشعته، وخلوات الحين بعد الحين، وصاحب المجلس كالعائب أو النائم، فنيهته بالتعريض فلم ينتبه، وكحرمته بالتصريح فلم يتحرك، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفتن. وهما هذان:

س أتوا للزناء لا للغناء

إن إخوانه المقيمين بالأم

موقر من بلادة وغباء

قطعوا أمرهم وأنت حمار

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لي صاحب المجلس: قد أمللتنا من سماعهما ففضل بتركهما أو إنشاد غيرهما. فأمسكت وأنا لا أدري أغافل هو أم متغافل. وما أذكر أني عدت إلى ذلك المجلس بعدها. فقلت فيه قطعة منها:

ويقيناً ونية وضميراً

أنت لا شك أحسن الناس ظناً

س جليساً لنا يعاني كبيراً

فانتبه أن بعض من كان بالأم

لا ولا كل ذي لحاظ بصيراً

ليس كل الركوع فاعلم صلاة

وحدثني ثعلب بن موسى الكلابي قال: حدثني سليمان بن أحمد الشاعر قال: حدثني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق، وكانت قد حجت خمس حجرات، وهي من المتعبدات المجتهدات، قال سليمان: فقالت لي: يا بن أخي، لا تحسن الظن بامرأة قط فإني أحيرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل: ركب البحر منصرفاً من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا حامسة نسوة، كلهن قد حججن، وصرنا في مركب في بحر القلزم، وفي بعض ملاحى السفينة رجل مضمحل الخلق مديد القامة واسع الأكتاف حسن التركيب، فرأيت أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحي فوضع إحليله في يدها وكان ضخماً جداً. فأمكنته في الوقت من نفسها. ثم مر عليهن كلهن في ليالي متواليات، فلم يبق له غيرها، تعني نفسها، قالت: فقلت في نفسي: لأنتمن منك. فأخذت موسى وأمسكتها بيدي. فأتى في الليل على جاري عادتته. فلما فعل كفعله في سائل الليالي سقطت الموسيقى عليه فارتاع وقام لينهض. قالت: فأشفقت عليه وقلت له: وقد أمسكته: لا زلت أو أخذ نصيبي منك. قالت العجوز: ففضى وطره وأستغفر الله.

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجبا. ومن بعض ذلك قولي حيث أقول:

كمحض لجين إذ يمد ويسبك

أتاني وماء المزن في الجو يسفك

فقل في محب نال ما ليس يدرك

هلال الدياجي انحط من جو أفقه

فمالي جواب غير أني أضحك

وكان الذي إن كنت لي عنه سائلاً

فيا عجباً من موقنه يتشكك

لفرط سروري خلنتي عنه نائماً

وأقول أيضاً قطعة منها:

قبيل قرع التساري للنواقيس

أتيتني وهلال الجو مطلع

وإخمص الرجل في لطف وتقويس

كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره

من كل لون كأذنان الطواويس

ولاح في الأفق قوس الله مكتسباً

وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة، وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطعهم بعد المودة، وتباغضهم بعد المحبة، واستحكام الضغائن وتأكد السخائم في صدورهم، لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة. فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفي دار الجزاء، ومن الكشف على رؤوس الخلائق: "يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد". جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته. ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل. فعهدها أصفى من الماء وألطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشد امتزاجاً من اللون في الملون، وأنفذاً استحكاماً من الأعراض في الأجسام، وأضواً من الشمس، وأصح من العيان، وأثقب من ألنجم، وأصدق من كدر القطا وأعجب من الدهر، وأحسن من البر، وأجمل من وجه أبي عامر، وألذ من العافية وأحلى من المني، وأدنى من النفس، وأقرب من النسب، وأرسخ من النقش في الحجر ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أقطع من الموت، وأنفذ من السهم، وأمر من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقيح من حلول النقم وامضى من عقم الرياح، وأضر من الحمق، وأدمر من غلبة العدو، وأشد من الأسر، وأقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار، وأنأى من الجزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خرق العادات وأقطع من فجأة البلاء، وأيشع من السم الزعاف؛ وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسي الأمهات. وتلك عادة الله في أهل الفسق القاصدين سواه، الأمين غيره؛ وذلك قوله عز وجل: "يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني". فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى. فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر، فلما أسر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فر خلف في جملتهم وبخا. فلما أتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكر راجعاً. فظفر به أمير المؤمنين المهدي، فأمر بصلبه. فلعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النيل.

ولقد أبحرني أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله أن سبب هروبه إلى محلة البرابر أيام تحولهم مع سليمان الظافر إنما كن لجارية يكلف بها تصيرت عند بعض من كان في تلك الناحية؛ ولقد كاد أن يتلف في تلك السفرة. وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر، الذي يستوي في فهمه العالم والجاهل؛ فكيف من العصمة التي لا يفهمها من ضعفت بصيرته. ولا يقول امرؤ: خلوت فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب "الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، "ويعلم السر وأخفى"، "وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وهو عليهم بذات الصدور". وهو عالم الغيب والشهادة، "ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم"، وقال: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى الملتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

وليجمع المستخف بالمعاصي. المتكل على التسوية. المعرض عن طاعة ربه أن إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقربين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد وصير شيطاناً رجيماً وأبعد عن رفيع المكان وهذا آدم صلى الله عليه وسلم بذنب واحد أخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها. ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين. أفترى هذا المغتر بالله ربه وبإلاماته ليزداد إثماً يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده؟ أو عقابه أعز عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكن استعذاب التمني واستيطاء مركب العجز وسخف الرأي فائدة أصحابها إلى الوبال والخزي، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهي الله تعالى ولا حام من غليظ عقابه لكان في قبيح الأحدثوة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشاد، فكيف والله عز وجل يقول: "ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً".

حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة إحدى وأربعمئة. حدثنا ابن سبويه وأبو إسحاق البلخي بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمئة. قالوا: ثنا محمد بن يوسف. ثنا محمد بن إسماعيل: ثنا قتيبة بن سعيد: ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو

بن شرحبيل قال: قال عبد الله وهو ابن مسعود: قال رجل: يا رسول الله، أي الذيب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو الله ندا وهو خلقك". قال: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك أن يطعم معك". قال: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك". فأنزل الله تصديقها: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون". وقال عز وجل: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله".

حدثنا الهمداني عن أبي إسحاق البلخي وابن سيويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن". وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال أنى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال يا رسول الله، إني زنيت. فأعرض عنه. ثم رد عليه أربع مرات. فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أباك جنون؟ قال: لا. قال فهل أحصنت قال: نعم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اذهب به فارجموه.

قال ابن شهاب: فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال: كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدر كناه بالحرة فرجمناه.

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع عن منصور عن الحسن بن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عباد بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد، وتغريب سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم. فإيا لشنعة ذنب أنزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه، والعنف بفاعله، والتشديد لمقترفه، وتشدد في ألا يرحم إلا بحضرة أوليائه عقوبة رجمه، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلا ملحد أن الزاني المحصن عليه الرجم حتى يموت".

فإيا لها قتلة ما أهولها، وعقوبة ما أفضعها، وأشد عذابها وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت.

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة، ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل علي رضي الله عنه بأنه رجم امرأة محصنة في الزنا بعد أن جلدتها مائة. وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله. والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعي، لأن زيادة العدل في الحديث مقبولة، وقد صح في إجماع الأمة المنقول بالكافة الذي يصحبه العمل عند كل فرقة وفي أهل كل نخلة من نخل أهل القبلة، حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتد بهم، أنه لا يحل دم امرئ مسلم إلا بكفر بعد إيمان، أو نفس بنفس، أو بمحاربة الله ورسوله يشهر فيها سيفه ويسعى في الأرض فساداً مقبلاً غير مدبر، وبالزنا بعد الإحصان. فإن حد ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربهه وقطع حجته في الأرض ومنايذته دينه لجرم كبير ومعصية شنعاء، والله تعالى يقول: "إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم". "والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة". وإن كان أهل العلم اختلفوا في تسميتها فكذلك يجمع مهمما اختلفوا فيه منها أن الزنا يقدم فيها، لا اختلاف بينهم في ذلك ولم يوعده الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك إلا في سبع ذنوب، وهي الكبائر: الزنا أحدها، وقذف المحصنات أيضاً منها، منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عز وجل.

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا في الذنوب الأربعة التي تقدم ذكرها. فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتداً قبل منه، ودرئ عنه الموت. وأما القتل فإن قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء أو عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص. وأما الفساد في الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يقدر عليه هدر عنه القتل، ولا سبيل في قول أحد مؤلف أو مخالف في ترك رجم المحصن، ولا وجه لرفع الموت عنه البتة.

ومما يدل على شنعة الزنا ما حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن: ثنا القاضي أبو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عبيد بن عمير: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب في زمانه ناساً من هذيل، فخرجت جارية منهم فأتبعها رجل يريد بها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده، فقال عمر: هذا قتيل الله، والله لا يودي أبداً.

وما جعل الله عز وجل فيه أربعة شهود وفي كل حكم شاهدين إلا حياطة منه ألا تشيع الفاحشة في عباده، لعظمتها وشنعتها وقبحها، وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بما أخاه المسلم أو أخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً، ووجب عليه بنص التنزيل أن تضرب بشرته ثمانين سوطاً.

ومالك رضي الله عنه يرى ألا يؤخذ في شيء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلا في قذف. وبالسند المذكور عن الليث بن سعيد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر أن يجلد الرجل قال لآخر: ما أبي بزنا ولا أمي بزانية.

في حديث طويل ويأجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجل لآخر: يا كافر، أو يا قاتل النفس التي حرم الله، لما وجب عليه حد؛ احتياطاً من الله عز وجل إلا يثبت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة.

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لا حد في الإسلام إلا والقتل يغني عنه وينسخه إلا حد القذف، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل. قال الله تعالى: "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا". وقال تعالى: "إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم". وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الغضب واللعة المذكوران في اللعان إنهما موجبتان.

حدثنا الحمداي عن أبي إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله، قال: ثنا سليمان بن ثور بن يزيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "احتنبوا السبع الموبقات". قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات". وإن في الزنا من إباحتها الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره، مالا يهون على ذي عقل أو من له أقل حلاق، ولو لا مكان هذا العنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين. وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حكماً باقياً لم ينسخ ولا أزيل، فيترك الناظر لعباده الذي لم يشغله عظيم ما في خلقه ولا يخيّف قدرته كبير ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها، فهو كما قال عز وجل: "الحكي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم". وقال: "يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها". وقال: "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء".

وإن أعظم ما يأتي به العبد هتك ستر الله عز وجل في عباده. وقد جاء في حكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ضربه الرجل الذي ضم صبياً حتى أمئى ضرباً كان سبباً للمنية. ومن إعجاب مالك رحمه الله باجتهاد الأمير الذي ضرب صبياً مكن رجلاً من تقبيله حتى أمئى الرجل، ضربه إلى أن مات، ما ينسى شدة دواعي هذا الشأن وأسبابه. والتزيد في الاجتهاد، وإن كنا لا نراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالم من الناس. وأما الذي نذهب إليه فالذي حدثناه الحمداي عن البلخي عن البخاري عن الفريري عن البخاري قال: ثنا يحيى بن سليمان، ثنا ابن وهب قال: أخبرني عمرو أن بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه عن أبي بردة الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله عز وجل".

وبه يقول أبو جعفر محمد بن علي النسائي الشافعي رحمه الله.

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع قال الله تعالى: "أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين". وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مسومة. ومالك رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرحم أحصنا أو لم يحصنا. واحتج بعض المالكيين في ذلك بأن الله عز وجل يقول في رحمه فاعليه بالحجارة: وما هي من الظالمين ببعيد. فوجب بهذا أنه من ظلم الآن يمثل فعلهم قربت منه والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه. وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السري أن أبا بكر رضي الله عنه أحرق فيه بالنار. وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرق فقال: هو شجاع بن ورقاء الأسدي أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يؤتي في دبره كما تؤتي المرأة.

وأن عن المعاصي لمذاهب للعقل واسعة، فما حرم الله شيئاً إلا وقد عوض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل، لا إله إلا هو. وأقول في النهي عن إتباع الهوى على سبيل الوعظ:

أقول لنفسي ما مبين كحالك
 صن النفس عما عابها وارضض الهوى
 وما الناس إلا هالك وابن هالك
 رأيت الهوى سهل المبادي لذيها
 فإن الهوى مفتاح باب المهالك
 فما لذة الإنسان والموت بعدها
 وعقبا مر الطعم ضنك المسالك
 فلا تتبع داراً قليلاً لبائها
 ولو عاش ضعفي عمر نوح بن لامك
 وما تركها إلا إذا هي أمكنت
 فقد أنذرتنا بالفناء الموشك
 وكم تارك إضماره غير تارك
 فما تارك الآمال عجباً جؤانراً
 كتار كهاذات الضروع الحواشك
 وما قابل الأمر الذي كان راغباً
 بشهوة مشتاق وعقل مبارك
 لأجدي عباد الله بالفوز عنده
 لدى جنة الفردوس فوق الأرائك
 ومن عرف الأمر بالذي هو طالب
 رأى سبباً ما في يدي كل مالك
 ومن عرف الرحمن لم يعص أمره
 وسبيل التقي والنسك خير المسالك
 ولو أنه يعطه جميع الممالك
 فما فقد التنغيص من عاج دونها
 وسالكها مستبصر خير سالك
 وطوبى لأقوام يؤمون نحوها
 ولا طاب عيش لأمري غير سالك
 لقد فقدوا غل النفوس وفضلوا
 بخفة أرواح ولين عرائك
 فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما اشتهاوا
 بعز سلاطين وأمن صعالك
 عصوا طاعة الأجساد في كل لذة
 وفازوا بدار الخلد رحب المبارك
 فلولا اعتداد الجسم أيقنت أنهم
 بنور محل ظلمة الغي هاتك
 فيا رب قدمهم وزد في صلاحهم
 يعيشون عيشاً مثل عيش الملائك
 ويا نفس حدي لا تملي وشمري
 وصل عليهم حيث حلوا وبارك
 وأنت متى دمرت سعيك في الهوى
 لنيل سرور الدهر فيما هنالك
 فقد بين الله الشريعة للورى
 علمت بأن الحق ليس كذلك
 فيا نفس جدي ف في خلاصك وانفذي
 بأبين من زهر النجوم الشوابك
 نفاذ السيوف المرهفات البواتك

الباب الثلاثون

فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعل له مكاناً وأهلاً لأمره ونهيهِ: وأرسل إليه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه، عناية منه بنا وإحساناً إلينا. وإن من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وحده ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته، وأن يقهر دينه، ثم أقام العدل لنفسه حصناً، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء، وذكرها بعقاب الله تعالى وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذرهما من يوم المعاذ والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم". "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات". "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً". "يوم وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خال من حمل ظلماً". "يوم ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً". "يوم الطامة الكبرى"، "يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى". "واليوم الذي قال الله تعالى فيه: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً". عندها يقول العاصي: يا وليي! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضى. وطوى كشحته على أحد من السيف، وتجرع غصصاً أمر من الحنظل، وصرف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وهيمأت له ولم يحل دونها حائل، لخرى أن يسر غداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوضه الله من هذه القرحة الأيمن يوم الحشر.

حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطيب قال: رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ، فزاره ذات ليلة وعزم على البيت عنده، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله. فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً. ونزل الشاب في داره مع امرأته، وكنت غاية الحسن وتربياً للضيف في الصبي فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله، فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه الهجيء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل، فهم بما ثم تاب إليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتنققع ثم قال: يا نفس، ذوقى هذا وأين هذا من نار جهنم. فهال المرأة ما رأت، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى. فانبلج الصباح وسبابته قد اصطمتها النار.

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه؟ أو ترى أن الله تعالى يضع له المقام؟ كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم. ولقد حدثني امرأة أثق بما ألقها فتى مثلها من الحسن وعلقتة وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خاليتين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا. فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً. وأنا أقرأ قول الله: "الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين". قالت: فما مضى قليل حتى اجتمعا حلال.

ولقد حدثني ثقة من إخواني أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفارقة في الصبي، فتعرضت لبعض تلك المعاني، فقال لها: كلا. إن من شكر نعمة الله فيما منحه من وصالك الذي كان أقصى آمالي أن أجتنب هواي لأمره ولعمري إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره.

وما أقدر في هذه الأخبار - وهي صحيحة - إلا أحد وجهين لا شك فيهما: إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل

سواه عليه فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولا في يوم ولا يومين، ولو طال على هؤلاء המתحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المخرك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرشد. لا إله إلا هو.

وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت، وخاطر تجرد أن قمعت به طوابع الشهوة في ذلك الحين، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه. جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه. آمين.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن عمر وابن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات يسندون الحديث إلى أبي العباس الوليد بن غانم أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن ابن الحكم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولى الخلافة بعده ورتبه في السطح وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه، ولم يأذن له في الخروج البتة. ورتب معه في كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من أكابر الفتيان بيتان معه في السطح. قال أبو العباس: فأقام على ذلك مدة طويلة وبعد عهده بأهله وهو في سن العشرين أو نحوها، إلى أن وافق مبيتي في ليلتي نوبة فتى من أكابر الفتيان، وكان صغيراً في سنه وغاية في حسن وجهه. قال أبو العباس: فقلت في نفسي: إني أحشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الملاك بمواقعه المعصية وتزين إبليس وأتباعه له قال: ثم أخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المطل على حرم أمير المؤمنين، والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فظلت أرقبه ولا أغفل وهو يظن أنني قد نمت ولا يشعر باطلاعي عليه. قال: فلما مضى هزيع من الليل رأيته قد قام واستوى قاعداً ساعة لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع إلى منامه. ثم قام بعد حين ولبس قميصه واستوفز ثم نزع عن نفسه وعاد إلى منامه. ثم قام الثالثة ولبس قميصه ودلى رجله من السرير وبقي كذلك ساعة ثم نادى الفتى باسمه فأجابه، فقال له: انزل عن السطح وابق في الفصيل الذي تحته. فقام الفتى مؤثراً له. فلما نزل قام محمد وأغلق الباب من داخله وعاد إلى سريره. قال أبو العباس: فعلمت من ذلك الوقت ن الله فيه مراد خير.

حدثنا أحمد بن محمد بن الجصور عن أحمد بن مطرف عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل؛ وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل؛ ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه؛ ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكره خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه".

وإني أذكر أبي دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته وتألف القلوب أخلاقه، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه، فسارعت إليه وكان هذا سحراً. فبعد أن صليت الصبح وأخذت زبي طريقي فكر فسنحت لي أبيات، ومعني رجل من إخواني فقال لي: ما هذا الإطراق؟ فلم أجبه حتى أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت. ومن الأبيات:

أراقك حسن غيبه لك تأريق

وقرب مزار يقتضي لك فرقة

ولذة طعم معقب لك علقماً

وتبريد توصل سره فيك تحريق

وشكا ولولا القرب لم يك تفريق

وصاباً وفسح في تضاعيفه ضيق

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتاع الأبدان وإجهااد الطاقة واستناد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استقلالها، وأمتن علينا بالعقل الذي به عرفناه، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها، وديرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نمتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها، ثم لم يرضى لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم: قال الله تعالى: "جزاء بما كانوا يعملون". رشدنا إلى سبيلها وكصرنا وجه ظلها، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله، وديناً لازماً له، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها، وأتابنا بفضلها على تفضلها.

وهذا كرم لا تهتدي إليه العقول، ولا يمكن أن تكيفه الألباب. ومن عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهية والحطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعر اسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم ينته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبة في لذة ذاهية لا تذهب الندامة عنها، ولا تفنى التباعة منها، ولا يزول الخزي عن راكبها، وإلى كم هذا التماذي وقد أسمعنا المتأدى، وكأن قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فيما إلى حنة وإما إلى نار، ألا إن التثبط في هذا المكان هو الضلال المبين، وفي ذلك أقول:

وعف في حبه وفي عربه
ولا اقتناص الأطباء من أربه
يزيل ما قد علاه من حجبه
خيفة يوم تبلى السرائر به
عنك ابتاع الهوى على لغبه
ساعية في الخلاص من كربه
أنجو من ضيقه ومن لهبه
دهر أما تتقي شبا نكبه
ما قد أراك الزمان من عجه
ومكسباً لا عباً بمكتسبه
إلا نبا حدها بمضطربه
لوى وحل الفؤاد في رهبه
ولا صحيح التقى كمؤتسبه
وليس صدق الكلام من كذبه
نخشى من الله متقى غضبه
لكل جاني الكلام محتقه
ورد وفد الهوى على عقبه
يلحق تفنيدنا بمرتقه
له كفعل الشواظ في حطبه
راحتة في الكريه من تعبته

أقصر عن لهوه وعن طربه
فليس شرب المدام همته
قد آن للقلب أن يفيق وأن
ألهاه عما عهدت يعجبه
يا نفس جدي وشمري ودعي
وسارعي في النجاة واجتهدي
علي أخطى بالفوز فيه وأن
يأبها اللاعب المجد به ال
كفاك من كل ما وعظت به
دع عنك داراً نفى غضارتها
لم يضطرب في محلها أحد
من عرف الله حق معرفة
ما منقضى الملك مثل خالده
ولا تقى الورى كفاسقهم
فلو أمنا من العقاب ولم
ولم نخف ناره التي خلقت
لكان فرضاً لزوم طاعته
وصحة الزهد في البقاء وأن
فقد رأينا فعل الزمان بأه
كم متعب في الإله مهجته

دنيا عداه المنون عن طلبه
حل به ما يخاف من سببه
فإنما بحثه على عطبه
صار إلى السفلى من ذرى رتبه
أن ينم حسن النمو في قصبه
في إثر جد يجد في هربه
يزيد ذا اللب في حلى أدبه
عاج عن المستقيم من عقبه
له وييدي الخفى من ريبه
موصولة بالمزيد من نشبه
فيما نهى الله عنه في كتبه
بالوقع في ويله وفي حربه
فيينا كحبل الوريد في كتبه
من كان من عجمه ومن عربه
وقمعه للزمان في نوبه
في الجو من مائه ومن شهبه
لا يحمل الحمل غير محتطبه

غضارة عيش سوف يذوي اخضرارها
وقد حان من دهم المنايا مزارها
وقد طال فيما عاينته اعتبارها
قد استيقنت أن ليس فيها قرارها
ولم تدر بعد الموت أين محارها
أما في توفيتها العذاب ازديارها

وطالب باجتهاده زهر ال
ومدرك ما ابتغاه ذي جدل
وباحت جاهد لبغيته
بيننا ترى المرء سامياً ملكا
كالزرع للرجل فوقه عمل
كم قاطع نفسه أسى وشجاً
أليس في ذلك زاجر عجب
فكيف والنار للمسيء إذا
ويوم عرض الحساب يفضحه ال
من قد حباه الإله رحمته
فصار من جهله يصرفها
أليس هذا أحرى العباد غداً
شكراً لرب لطيف قدرته
رازق أهل الزمان أجمعهم
والحمد لله في تفضله
أخدمنا الأرض والسماء ومن
فاسمع ودع من عصاه ناحية

وأقول أيضاً:

أعارتك دنيا مسترد معارها
وهل يتمنى المحكم الرأي عيشة
وكيف تلذ العين هجعة ساعة
وكيف تقر النفس في دار ثقلة
وأتى له في الأرض خاطر فكرة
أليس لها في السعي للفوز شاغل

إلى حر نار ليس يطفي أوارها
إلى غير ما أضحى إليه مدارها
وتقصد وجهاً في سواه سفارها
وقد أيقنت أ، العذاب قصارها
لقد شفاها طغيانها واغترارها
وعما لها منه النجاح نفارها
وتتبع دنيا جد عنها مرارها
قلله دار ليس تخمد نارها
دليل على محض العقول اختيارها
وتسلك سبلاً ليس يخفى عوارها
لبهائم يؤذي الرجل فيها عثارها
إذا ما انقضى لا ينقص مستثارها
وتبقى تباعات الذنوب وعارها
تبين من سر الخطوب استثارها
نواهيها إذ قد تجلي منارها
وتغرى بدنيا ساء فيك سرارها
وهاتيك منها مقفرات ديارها
فإن المذكي للعقول اعتبارها

وكان ضماناً في الأعادي انتصارها
وعاد إلى ذي ملكه استعارها
مشمرة في القصد وهو سعارها
مدلي بأيدي عند ذي العرش ثارها
على أنها باد إليك أزوارها

فخابت نفوس قادها لهو ساعة
لها سائق حاد حثيث مبادر
تراد الأمر وهي تطلب غيره
أمسرة فيما يسوء قيامها
تعطل مفروضاً وتعني بفضلة
إلى ما لها منه البلاء سكونها
وتعرض عن رب دعاها لرشدها
فيأبها المغرور بادر برجعة
ولا تتخير فانياً دون خالد
أتعلم أن الحق فيما تركته
وتترك بيضاء المناهج ضلة
تسر بلهو معقب بندامة
وتفنى الليالي والمسرات كلها
فهل أنت يا مغبون مستيقظ فقد
فعجل إلى رضوان ربك واجتنب
يجد مرور الدهر عنك بلاعب
فكم أمة قد غرها الدهر قبلنا
تذكر على ما قد مضى واعتبر به

تحامى ذرها كل باغ وطالب
توافت ببطن الأرض وانشت شملها
وكم راقد في غفلة عن منية
ومظلمة قد نالها متسلط
أراك إذا حاولت دنياك ساعياً

وتبدي أناة لا يصح اعتذارها
وتتسى التي فرض عليك حذارها
مبيناً إذا الأقدار حل اضطرارها
مضت كان ملكاً في يدي خيارها
عصيب يوافي النفس فيها احتضارها
وإن من الآمال فيه انهيارها
يلوح عليها للعيون إغبارها
وقد حط عن وجه الحياة خمارها
وساعة حشر ليس يخفى اشتهاها
صحائفنا وإنثال فينا انتشارها
وأذكى من نار الجحيم استعارها
وأسرع من زهر النجوم إنكارها
وقد حل أمر كان منه انتشارها
وقد عطلت من مالكيها عشارها
وإما لدار لا يفك إسارها
فتحصى المعاصي كبرها وصغارها
وتهلك أهلها هناك كبارها
إذا ما ستوى إسرارها وجهارها
وأسكنهم داراً حلالاً عقارها
بجلبة سبق طرفها وحمارها
يظن على أهل الحظوظ اقتصارها
وليس بغير البذل يحمى نمارها
وما الهلك إلا قربها واعتمارها
وقد بان للذكي اختبارها

وفي طاعة الرحمن يقعدك الونى
تحاذر إخواناً ستفنى وتنقضى
كأنى أرى منك التبرم ظاهراً
هناك يقول المرء من لي بأعصر
تنبه ليوم قد أظلك ورده
تبراً فيه منك كل مخالط
فأودعت في ظلماء ضنك مقرها
تنادي فلا تدري المنادي مفرداً
تنادي إلى يوم شديد مفزع
إذا حشرت فيه الوحوش وجمعت
وزينت الجنات فيه وأزلفت
وكورت الشمس المنيرة بالضحي
لقد جل أمر كان منه انتظامها
وسيرت الأجيال والأرض بدلت
فإما لدار ليس يفنى نعيمها
بحضرة جبار رفيق معاقب
ويندم يوم البعث جاني صغارها
ستغبط أجساد وتحيا نفوسها
إذا حفهم عفو الإله وفضله
سيلحقهم أهل الفسوق إذا استوى
يفر بنو الدنيا بدنياهم التي
هي الأم خير البر فيها عقوقها
فما نال منها الحظ إلا مهينها
تهافت فيها طامع بعد طامع

لها ذا اعتمار يجتنبك غمارها
فقد صح في العقل الجلي عيارها
ولذة نفس يستطاب اجترارها
لمتبعه الصفار جم صغارها
مكين لطلاب الخلاص اختصارها
إذا صان همات الرجال انكسارها
قنوع غني النفس باد وقارها
تضيق بها ذرعاً ويفنى اصطبارها
أحاطت بنا ما إن يفيق خمارها
وفي علمه معمورها وقفارها
بلا عمد بيني عليه قرارها
فصح لديها ليلها ونهارها
فمنها يغذي حبها وثمارها
فأشرق فيها وردها وبهارها

ومنهن ما يغشى اللحاظ احمرارها
فصار من الصم الصلاب انفجارها
غدوا ويبدو بالعشي اصفرارها
وأحكمها حتى استقام مدارها
فلس إلى حي سواه افتقارها
له ملكها منقادة وانتمارها
فأمكن بعد العجز فيها اقتدارها
وما حلها إثغارها وأنغارها
وأسمعهم في الحين منها حوارها

تطامن لغمر الحادثات ولا تكن
وياك أن تغتر منها بما ترى
رأيت ملوك الأرض يبغون هدة
وخلوا طريق القصد في مبتغاتهم
وإن التي يبغون نهج بقية
هل العز إلا همة صح صونها
وهل رايح إلا امرؤ متوكل
ويلقى ولادة الملك خوفاً وفكرة
عياناً ترى هذا ولكن سكرة
قد برهن الباني على الأرض سققها
ومن يمسك الأجرام والأرض أمره
ومن قدر التدبير فيها بحكمة
ومن فتق الأمواه في صفح وجهها
ومن صير الألوان في نور نبتها

فمنهن مخضر يروق بصيصه
ومن حفر الأنهار دون تكلف
ومن رتب الشمس المنير أبيضاضها
ومن خلق الأفلاك فامند جريها
ومن إن ألمت بالعقول رزية
تجد كل هذا راجع نحو خالق
أبان لنا الآيات في أنبيائه
فأنطق أفواهاً بألفاظ حكمة
وأبرز من صم الحجارة ناقية

ليوقن أقوام وتكفر عصبية
 أتأها بأسباب الهلاك قدارها
 بوشق لموسى البحر دون تكلف
 وبان من الأمواج فيه انحسارها
 وسلم من نار الأونوق خليله
 فلم يؤذه إحراقها واعتزارها
 ونجى من الطوفان نوحاً وقد هدت
 به أمة أبدى الفسوق شرارها
 ومكن داوداً بأيدٍ وابنه
 فتعسيرها ملقى له وبارها
 وذل جبار البلاد لأمره
 وعلم من طير السماء حوارها
 وفضل بالقرآن أمة أحمد
 وشق له بدر السماء وخصه
 ومكن في أقصى البلاد مغارها
 وأنقذنا من كفر أربابنا به
 وآيات حق لا يخل معارها
 وكان على قطب الهلاك منارها
 فما بالنار لا نترك الجبل ويحنا
 لنسلم من نار تترامى شرارها

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته إيجاباً لك، وتقمناً لمسرتك، ووقفاً عند أمرك. ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها، موفيات على وجوهها، ومفردات في أبوابها، ومنعمات التفسير، مثل الإفراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروي السفار وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملة، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له ولكل شيء حد، وقد جعل الله لكل شيء قدراً. والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان نقي قوام الذرة أو دولها، ولخرج عن حد المعقول. والسهر قد يتصل ليالي، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين هلك. وإنما قلنا أن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام؛ لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكننا حكينا على الأغلب. وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة.

وحدثني القاضي أبو عبد الرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً. وإنما اقتصر في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً، وعلى أي قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفي بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم، وسرى كثير من إخواننا أخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها من أسمائهم على ما شربنا في ابتدائها. وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ومحبيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله. ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب. وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها.

وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته، قال الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم".

وحدثني أحمد بن محمد بن الجسوري، ثنا ابن أبي دليم، ثنا ابن وضاح عن يحيى ابن مالك بن أبي أنس عن أبي الزبير المكي عن أبي شريح الكعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إياكم والظن فإنه أكذب الكذب".

وبه إلى مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".

وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن إسحاق، ثنا عبد اله بن يوسف الأزدي، ثنا يحيى بن عائد، ثنا أبو عدي عبد العزيز بن علي بن محمد بن

إسحاق بن الفرج الإمام بمصر، ثنا أبو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري، ثنا محمد بن زكريا الغلابي، ثنا أبو العباس، ثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثمانى عشر كلمة من الحكمة منها: ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك على ما يغلبك عليه.

ولا تظن بكلمة خرجت من في امرئ مسلم شراً وأنت تجدلها في الخير محملاً: فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين وبالجملة فإني لا أقول بالمرأية ولا أنسك نسكاً أعجمياً. ومن أدى الفرائض المأمور بها، واجتنب المحارم المنهى عنها، ولم ينسى الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الإحسان، ودعني مما سوى ذلك وحسي الله.

والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب، وإن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فانت لمثل خاطري لعجب على ما مضى ودهمني. فأنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار. والخلاء عن الأوطان وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفرة، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا. وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ، والذي ترك أعظم من الذي تحيف. ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحد. ولا يؤدي شكرها، والكل منحه وعطاياها، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكل عارية فراجعة إلى معيرها. وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول:

فلم أليس ثياب المستضام

يسير صائتي دون الأنام

فلست لما تولى ذا اهتمام

أدركه ففيما ذا اغتنام

جعلت اليأس لي حصناً ودرعاً

وأكثر من جميع الناس عندي

إذا ما صح لي ديني وعرضي

تولى الأمس والغد لست أدري

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشكرين الحامدين الذاكرين. آمين أمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

2	المقدمة
4	الباب الاول
4	تقسيم الرسالة
4	الكلام في ماهية الحب
8	الباب الثاني
8	علامات الحب
12	الباب الثالث
12	من أحب في النوم
12	الباب الرابع
12	من أحب بالوصف
13	الباب الخامس
13	من أحب من نظرة واحدة
14	الباب السادس
14	من لا يحب إلا مع المطاولة
16	الباب السابع
16	من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها
17	الباب الثامن
17	التعريض بالقول
18	الباب التاسع
18	الإشارة بالعين
19	الباب العاشر
19	المراسلة
20	السفير
20	الباب الثاني عشر
21	طي السر
22	الباب الثالث عشر
22	الإذاعة
24	الباب الرابع عشر
24	الطاعة
26	الباب الخامس عشر
26	المخالفة
26	الباب السادس عشر
26	العادل
27	الباب السابع عشر
27	المساعد من الإخوان
28	الباب الثامن عشر
28	الرقيب
29	الباب التاسع عشر
30	الوشى
32	الباب العشرون
33	الوصل
37	الباب الحادي والعشرون

37	الهجر
43	الباب الثاني والعشرون
43	الوفاء
46	الباب الثالث والعشرون
46	الغدر
46	الباب الرابع والعشرون
47	النين
53	الباب الخامس والعشرون
53	القتوع
58	الباب السادس والعشرون
58	الضنى
59	الباب السابع والعشرون
59	السلو
65	الباب الثامن والعشرون
65	الموت
68	الباب التاسع والعشرون
68	قبح المعصية
78	الباب الثلاثون
78	فضل التعفف

to pdf: www.al-mostafa.com